مراجعات

ملحق شهري تصدره وزارة الأوقاف والشؤون الدينية

إبستمولوجيا الأخبار الزائفة
تأليف جماعي

الصين المعاصرة في ثماني كلمات
بياتريشي غاليللي

سوسيولوجيا الهندسة المعمارية
أوليفييه شادوا

الانعكاس الديموغرافي
تشارلز جودهارت
ومانوج برادها

إعادة اكتشاف القرآن
إيميليو بلاتي

النزوح والتهجير...
فنسنت ريغنت

المسلمون في الشرق الأقصى...
عدة مؤلفين

القيادة الاستثنائية اليومية...
جيمس كوزيس
وبيري بوسنير

فهدٌ أسود...
تمار فيرتا - زهافي

الطفرة والتمثال...
ويليام كوين
وجون تورنر

بيئة البيانات الرقمية...
يحيى اليحياوي

ذي الحجة 1442 هـ - يوليو 2021

الصفحة الأولى...

هلال الحجري

من أهم الشعراء الذين استلهموا العرب في أعمالهم الشاعر الإنجليزي الشهير روبرت ساوذي Robert Southey (1774-1843) وهو أحد الرومانسيين الذين عرفوا بـ«شعراء البحيرة» إضافة إلى صديقيه ويليام وردزورث، وصامويل تايلر كولريدج. نشر ساوذي مجموعة ملاحم شعرية، إحداها متصل اتصالا وثيقا بالعرب والإسلام وهي ملحمة (ثعلبة المُدمِّر Thalaba the Destroyer) وقد صدرت عام 1801. تصف الملحمة محاولة بعض السحرة قتل أسرة «حُضَيْرة Hodeirah» سعياً لمنع نبوءة هلاكهم من أن تتحقق مستقبلا. وتروي الأحداث أن طفلًا صغيرًا من هذه الأسرة يُدعى ثَعْلَبة استطاع النجاةَ من المذبحة. وحين طارد أحدُ السحرة ثعلبةَ لقتله، سُحق الساحر بعاصفة عظيمة ووقع خاتمه السحري في حوزة الطفل. سافر ثعلبة إلى الجزيرة العربية كي يتمكن من هزيمة السحرة الأشرار، وقد تمَّ له ذلك بإيمانه بالله وهداية النبي محمد له. وقد رأى النقاد أنَّ هذه الملحمة رغم استنادها على مواجهة الخرافات والأساطير بيقين الشرق، فإنها تروّج للإمبريالية البريطانية في الخارج وتمثل تحولاً سياسيًا لساوذي بعد أن بدأ حياته بأفكار راديكالية ترفض الاستبداد الديني للكاثوليكية الرومانية في بلده. تتكون هذه الملحمة من اثني عشر كتاباً، ورغم أنَّها موزونة موسيقياً فإنها على نحو غريب قد أهملت القوافي. ولذلك؛ آثرتُ أن أترجم هذا المقطع من الملحمة والمتعلق بوصف صحراء الجزيرة العربية على شكل ما يعرف عندنا في الأدب العربي الحديث بـ«قصيدة التفعيلة».

(صحراء جزيرة العرب)

ما أجْمَلَه منْ لَيْلْ!
نسماتُ هواءٍ طَلْقٍ وسُكونْ
وسماءٌ صافيَةٌ لا غيمٌ يغشاها، لا سُدُمٌ وضَبَابْ
وهناكَ بعزّتِه بَدْرٌ قُدْسيٌّ يَسْبَحُ
في الآفاقِ الزرقاءِ بعيدا.
تحت ضياها الهادئِ،
تمتدُّ الصحراءُ
مُحيطًا يَتزنّرُ بالأفلاك.
ما أجْمَلَه منْ لَيْلْ!
في هذا الوقَتِ الباكرِ
مَنْ يَعْبُرُ رَمْلَ الصحراء؟
لا مَوْقفَ تُبْصِرُهُ،
لا بُسْتانَ نخيلٍ في هذا القَفْر.
الأمُّ وطفْلٌ يصحبها،
أرْمَلةٌ ويتيمٌ
في هذا الوقتِ الباكرِ وَحْدَهما
قد تاها في رَمْلِ الصحراء.
جالتْ ببصرِها في كلِّ مكان،
واأسفاهُ!
لا خيمةَ عندَ الكُثْبانِ
ولا نَخْلةَ باسقةً تَسْتجلي البيداءْ
الأُفْقُ المُفْرطُ في زُرْقتِه
يَرْبِضُ كالقُبّة
فوقَ يَبابٍ دَوّارْ.
جالتْ ببصرِها في كُلِّ مكانْ،
لا شيءَ سوى الجوعِ أو العطشِ هناكْ؛
فانْحَنت الأمُّ البائسةُ على الطِّفْلْ
وبَكتْه عويلا.

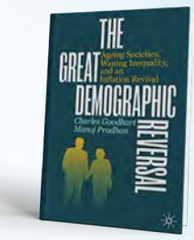

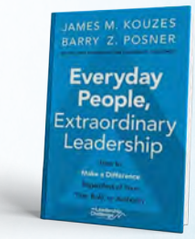

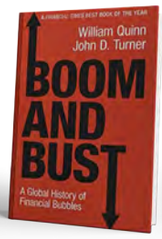

hilalalhajri@hotmail.com

إصدارات عالمية جديدة

إبستمولوجيا الأخبار الزائفة

كتاب جماعي تحت إشراف: سفين بيرنيكر وأمي فلاوري وتوماس جروندمان

مُحمَّد الشيخ *

دأب الكاتب النمساوي الشهير ميزيل على السخرية من ظاهرة تنامي «التقليعات الفلسفية» وتناسلها الغزير كالفطر، بترديد القول: «لكل مرسم دراسي جديد موضة / بدعة فلسفية مستحدثة». وبالفعل، قد يميل القارئ الذي يتناهى إلى سمعه مبحث فلسفي جديد بات يسمى «إبستمولوجيا (علم معرفة) الأخبار الزائفة» إلى التمثل بهذا القول المأثور. لكن، دعنا ننظر إلى الوجه المنير من القمر لا إلى وجهه الكالح، فنتذكر آنها أن مباحث الفلسفة منذ أن كانت الفلسفة فلسفة لم تبق أبد الدهر هي هي، بل تطورت في أطوار، وأننا صرنا إلى مباحث لم يعهد لها القدماء وجودا، ولا سمع عنها الوسطويون أخبارا، ولا خطرت على بال المحدثين بدءًا.

وما كان هذا المبحث الجديد الذي يعالجه كتابنا هذا بِدْعًا من ذلك. وقد أملته ضرورة العصر الذي نحن شاهدون عليه، والذي بات كاذب الأنباء فيه مضاهٍ، بله بازّ لصحيح الأخبار؛ لا سيما في زمن الوباء هذا الذي نعيشه. ومبحث «إبستمولوجيا الأخبار الزائفة» هذا يدخل في صلب ما سماه المشرفون على الكتاب باسم: «أمراض المعرفة الإبستمولوجية»؛ أي تلك الأعطاب التي تصيب طرائق اكتساب المعرفة وتحصيل مضامينها وبيان أوجه انتشارها. ذلك أنه بما أن لسائر الأمور البشرية وجها سليما ووجها سقيما، فما كانت سبل تحصيل المعرفة وطرائق انتشارها عن هذين الوجهين بمبعد؛ لا سيما في «عصر الإنترنت ووسائط التواصل الاجتماعي والتقاطب السياسي». وقد باتت هذه الأعراض المَرَضية تدعو إلى ضرب من تكييف «الإبستمولوجيا الاجتماعية». أي المبحث الناظر في العلاقة بين المعرفة والمجتمع. مع واقع انتشار الأخبار الزائفة على نحو بات يشكل خطرا على المعلومة الصحيحة.

وبغاية تجديد النظر في هذا المجال وتحوير مجال الإبستمولوجيا الاجتماعية حتى يتوافق مع الوضع الجديد. وكأني بها كانت لأصحاب الكتاب نبوءة ألمحية ألمعية بالمستقبل القريب. كان قد ائتلف نحو ثلاثين متدخلا من أهل الاختصاص في ميادين علم الاجتماع والفلسفة والقانون (يونيو ٢٠١٨)، في مؤتمر استضافه مركز كولونيا (ألمانيا) للإبستمولوجيا المعاصرة والتقليد الكانطي، تحت رعاية مؤسسة ألسكندر هامبولت، كما أضيفت إلى مداخلاتهم لاحقا مداخلات أخرى من مختلف المنظورات والآفاق، للنظر في مبحث «إبستمولوجيا الأخبار الزائفة» الذي يختص بالنظر في ثلاثة أسئلة: ١- سؤال الماهية: ما الأخبار الزائفة؟ ٢- سؤال اللِّمِيَّة: لمَ تنتشر الأخبار الزائفة انتشار النار في الهشيم؟ وما هي الآليات التي تسرّع إنتاج الأخبار الزائفة وتيسر انتشارها؟ ٣- سؤال الأيية: أيُّ علاجات متوفرة ترياقا فعالا ضد الأخبار الزائفة؟ وتلك كانت هي الأسئلة التي تسعى أبواب هذا الكتاب إلى الإجابة عنها.

ما الأخبار الزائفة؟

ينطلق أصحاب هذا الكتاب من القناعة التالية: «الأخبار شأن مهم»، والديمقراطية بحاجة إلى أخبار مستقلة مبنية على وقائع بغاية توفير صوت لقطاع عريض من الناس، وبهدف مراقبة صاحب النفوذ والسلطة، وبغرض إطلاع أعضاء المجتمع على ما يروج فيه. فالأخبار تفيد هنا باعتبارها آلية من آليات المحاسبة الديمقراطية، وتنشئة المواطنين على المواقف والقيم الديمقراطية. وعندما تتوفر ثمة معايير معرفية (إبستمولوجية) للأخبار، فإن من شأن المواطنين أن يقتدروا على التصويت وهم على بَيِّنَة من أمرهم، وأن يُحمِّلوا المسؤولية إلى الرسميين، وأن يدعموا على نحو أفضل العمليات والقيم الديمقراطية.

والحال أن القيمة المعرفية للأخبار مرتهنة، بالأولى، بالحقيقة. إذ من شأن الأخبار الجيدة أن تكون دقيقة وموثوقة، وأن تصدر عن جهة معروفة ومسؤولة. على أن الكثير من الأخبار التي يتم إمطارنا بها يوميا لا تتوفر فيها هذه السمة: إذ ما كانت ذات قيمة من الناحية المعرفية . الإبستمولوجية . فلا هي دقيقة، ولا هي موثوقة، ولا هي مَعْزُوَّةٌ إلى جهة معروفة ومسؤولة. ذلك أن بيئتنا الإعلامية باتت «ملوثة» بالأخبار غير الدقيقة، بل الزائفة، بله المضللة. إذ ثمة الكثير من «أشباه الأخبار» ولا «أخبار» التي أمست رائجة، على نحو ما حدث في حملة أمريكا الانتخابية لعام ٢٠١٦، وقد انتشرت لكسب المال أو لتضليل الجمهور. والأمر نفسه حدث في استفتاء خروج بريطانيا من الاتحاد الأوربي. أكثر من هذا، أهلت وسائط الاتصال الاجتماعية الحديثة، شأن فايسبوك، الأخبار غير الموثوقة ونظريات مؤامرة للبروز بحسبانها أدوات سياسية مهيمنة ...

كل هذا يدعو إلى التساؤل عما إذا كان سيل الأخبار غير الموثوقة الذي يغمرنا اليوم ظاهرة مستجدة أم قديمة. ومهما يكن من أمر، حتى لو أن لم تكن هذه الظاهرة بالجديدة كل الجدة، فإن تكنولوجيا الإعلام جعلت أمر انتشار الأخبار الزائفة يستفحل. وهناك عوامل عدة ساهمت في استفحال التهديد الذي تشكله الأخبار غير الموثوقة: أولا؛ ما قاد إليه الإنترنت من دَمَقْرَطَة إنتاج الأخبار؛ بحيث أمسى بإمكان أي كان من أفناء الناس أن ينشئ قناة إخبارية خاصة به. ولا حسيب ولا رقيب. ثانيها؛ في غياب المراقبة الفعلية، فإن مما طم الوادي على القرى أن نسبة المتتبعين صارت معيارا للأخبار وليست القيمة المعرفية لما تنشره هذه القنوات. ثالثها؛ تنشر هذه الوسائل . نظير تويتر . الأخبار على نحو أبعد مدى وأسرع انتشارا وأعمق تأثيرا مما تفعله وسائل بث الأخبار الصحيحة والموثوقة والأصيلة. رابعها؛ بات ثمة استهداف لجمهور مقصود وحصري (من حيث اهتماماته) بأنباء بعينها، وذلك بغاية خلق «جمهور معزول مخصوص» يعيش في «قوقعات» شعاره: لنا أخبارنا ولكم أخباركم. خامسها؛ على الرغم من أن ظاهر العصر الرقمي يدل على أنه عصر تعدد، فإن باطنه يشي عن أن التعدد فيه مفقود: ثمة وكالات بعينها وخدمات بذاتها تتحكم في نشر الأخبار نفسها بمسميات مختلفة. وأخيرا؛ هناك أفول للصحافة المحترفة تلقاء صعود ملفت للنظر للصحافة الهاوية ...

هذا ويطلق أصحاب الكتاب اسم «الأخبار الزائفة» على كل حالات الأخبار التي لا تستجيب، من الناحية المعرفية، إلى معايير النبأ الحق أو الموثوق به، والتي تفسد الأخبار وتلوثها. على أن ثمة العديد ممن اعترضوا على استعمال هذا المفهوم بتعِلَّة أنه معتل لسانيا؛ إذ الأصل ألا يطلق على الخبر الزائف اسم «خبر»، وإلا كان ثمة تناقض في الألفاظ. فهو تعبير دال على قلق في العبارة. ومن ثمة يلزم طرحه من الخطاب الأكاديمي. ويرد أصحاب الكتاب بأن العديد من المفاهيم وإن

اعتراها ضرب من اللبس، فإن هذا لم يمنع من استخدامها أكاديميا؛ شأن ألفاظ «القاتل» و«المحتال» و«الكاذب» التي تحمل دلالة حكم قيمة؛ إذ لا يكون القاتل قاتلا ولا المحال محتالا ولا الكاذب كاذبا حتى يدان الإدانة النهائية ... فلماذا يستثنى مفهوم «الأخبار الزائفة» الدال على الأخبار المظنونة والمضللة حتى وإن استعمل أحيانا استعمالا سجاليا ودعائيا؟ ومهما يكن من أمر، فإن هذا الاعتراض لا يمنع من ضرورة الاعتقاد بأن عبارة «الأخبار الزائفة» صارت وسوف تظل التعبير الأكثر تداولا للدلالة على ظاهرة متنامية من التشاطر العمومي للمعلومة/الخبر غير الموثوقة أو المضللة. ما الآليات التي تسرّع إنتاج الأخبار الزائفة وتساهم في انتشارها؟

يجيب أصحاب الكتاب بأنَّ ثمة عوامل ثلاثة: ١- سمات تكنولوجيا التواصل. ٢- الحيثيات الاجتماعية. ٣- الإيديولوجيات الإبستيمية. من جهة أولى، ثمة منصات الأنترنت، شأن جوجل وياهو، التي تصنف الأنباء عبر خوارزميات مشغلات البحث. وفيها يختلط الغث بالسمين. بلا حسيب، وبلا رقيب. بل يتم ذلك أحيانا على حساب الصحيح. وهي آليات تكرس المعهود أحيانا والمألوف وما يطلبه الجمهور. ثم إن هناك وسائط التواصل، مثيل فايسبوك وتويتر، التي لا تترك وقتا للمتصفح حتى يشكل رأيا نقديا؛ بحيث يحدث التباس في فعل تشاطر الأنباء نفسه: أهو دعوة إلى الانتباه والحذر أم شهادة عليه وتصديق؟ ومن جهة ثانية؛ هناك الحيثيات الاجتماعية؛ إذ الناس ينتمون إلى بيئات تتميز باستقطاب شديد: جماعات هوية متقوقعة، درجة عالية من القلق والتوتر، إحساس قدري بفقد السيطرة على ما يجري، ميل إلى القول بأنه لا يوجد في القنافذ أملس إذ كل الأخبار سواسية. وتكون الضحية آنذاك هي الأخبار الصادرة عن «العدو السياسي» وعن «النخب» وعن «الجهات الرسمية» وعن «الحكومة» أو «المؤسسة» والتي يتم سحب الثقة منها. وتتكفل روح التداول الجمعي الحصري ونظريات المؤامرة بما ينبغي أن يعد من الأخبار موثوقا وما لا. وهو الأمر الذي قد يفرض طوقا وعزلة على مستهلكين بحيث يحرمهم من تصحيح ما تلقوه من زائف الأخبار. وثمة، من جهة ثالثة، ما يسميه مؤلفو الكتاب باسم «الإيديولوجيات الإبستيمية» التي تقدم المعايير التي تنظم أي أجزاء من الحجة يتوجب اعتبارها اعتبارا جادا وأي نوع ينبغي تجاهله. وفي هذا الأمر عدم مراعاة لا لمنح فرص متكافئة لكل الشهادات والتصديقات ولا للتسامح الفكري مع المخالف بالإقبال على الآراء المباينة ومنحها تكافؤا في الاعتبار.

ما هي العلاجات المتوفرة ترياقا ضد الأخبار الزائفة؟

على فرض أن الأخبار ملوثة كلها بالمزيف، ما الذي يتعين فعله لحماية الفرد المستهلك من الوثوق بها عند تكوينه لرأيه؟ ثمة ثلاثة إجراءات: ١- يمكن تمرين المتلقي على التمييز بين الحقيقة والشبهة. وهو أمر مرتبط بالتفكير النقدي وبأدبيات الإعلام وبالمقدرة على اكتشاف التدليس.

٢- يمكن توعية منتجي الأخبار ومذيعيها بإظهار المزيد من المسؤولية عما يقومون به. ٣- يمكن فرض تشريعات وتنظيمات من لدن الحكومة ومن لدن المنتجين أنفسهم تتعلق بآداب نشر الأخبار.

بنية الكتاب وبحوثه الأساسية

تأسيسا على تلك الأسئلة الثلاثة، التي تشكل صلب إبستمولوجيا الأخبار الزائفة أو علم معرفة الأخبار وبيان قيمتها المعرفية، تبوب الكتاب ثلاثة أبواب: دار الباب الأول على سؤال الماهية: ما الأنباء الزائفة؟ وعلى عوالقه شأن نظرية المؤامرة. وناقش الباب الثاني مختلف الممارسات التي تنشأ عنها الأخبار الزائفة أو تنتشر بدءا منها. وتم تخصيص الباب الثالث للترياقات الممكنة ضد الأخبار الزائفة.

من أهم بحوث الباب الأول بحث ورد تحت عنوان: «الحديث عن الأخبار الزائفة: تحديات وأبعاد» ذهب فيه صاحباه إلى أن الأخبار الزائفة هي تلك التي تفتقد إلى الحقية وإلى المصداقية. وقد عددا سبعة أبعاد تشكل جزءا من ظاهرة الأخبار الزائفة، ودعيا إلى إقامة معايير واضحة للحد منها، وإلى إصلاح ما أفسدته بإقامة معايير جوانية لفحص الأنباء وإذاعتها. أما البحث الثاني، «أخبار حسنة، أخبار سيئة، أخبار زائفة»، فقد راح صاحبه إلى أن «الأخبار الزائفة» ما كانت «أخبارا» على الحقيقة، ولا افتقدت هي إلى المصداقية فحسب، وإنما هي أخبار لا تستجيب إلى مطلب أن تكون تتقصد نقل أخبار دقيقة من الصنف الموثوق به. فالوصف «زائفة» يشير إلى قصدها التضليلي البيّن. وقد دعا صاحب البحث إلى إنشاء مؤسسات ديمقراطية لتدبير أمر الأخبار الزائفة وفضحها، كما ذهب إلى ضرورة تطوير فضائل فكرية أو ذهنية لمقاومة هذا الجنس من الأخبار، وأن من شأن النزاهة الفكرية أن تعمل على كشفها الكشف. وفي بحثه «الأخبار الزائفة عن الأخبار الزائفة» ذهب المؤلف إلى أن استعمال المفهوم قد يكون مغرضا، بحيث قد يستعمله السياسيون من أصحاب النفوذ ضد خصومهم، بغاية تسفيه الخلاف الديمقراطي.

وفي بحوث الباب الثاني تم فحص آليات الأخبار الزائفة. وفي بحث مهم من هذا الباب تم فحص مسألة نظرية المؤامرة وإنكار نتائج العلم باستعمال منهج ظاهره علمي وباطنه لا يمت للعلم بأية صلة، في تحايل على العلم بشبيه العلم وما هو بعلم. وقد أفردت مباحث الباب الثالث لهيَّة فحص كيفية تحسين وضعنا النقدي أمام هجمة الأخبار الزائفة. إذ نحن المسؤولون عن المخاطر المعرفية التي نكون عرضة لها عندما ننشر الأخبار التي تلقيناها عن طريق الإنترنت. وهنا يذهب بحث إلى التساؤل: كيف لشخص يحظى بالثقة من الناحية المعرفية أن يقاوم مخاطر حمله، حتى من دون وعي منه، لأخبار زائفة والمساهمة في إشاعتها، وذلك بما أنه بات من الصعب بمكان تبين أمرها بعد أن تشابهت الأنباء علينا؟ أم كيف يتعين عليه أن يتبين مسالك تشاطر الخبر المهم مع الغير تشاطرا آمنا، والحذر من الخبر الزائف ووضعه في ثلاجة؟ وفي نفس السياق يذهب بحث آخر إلى التفكير في وضع الأفراد وهم في بحر خضم من الأخبار الزائفة وقد تعيّن عليهم ضمان بيئة خبرية صحية للجميع؛ لا سيما ونحن نركب نفس السفينة وفي غرقها غرقنا. ويتمثل الجواب على هذا الإعضال في كلمة واحدة: التضامن. ذلك أن علينا أن نتضامن حتى نجعل النبأ الطيب يطرد النبأ الخبيث، تماما مثلما يحدث في حديقة. ومن بين هذه الطرائق طريقة الإعراض عن الأخبار. إذ تعد آلية الامتناع عن مطالعة الأخبار، في رأي أحد الباحثين، آلية فعالة في مقاومة الأخبار الضارة المضللة؛ فلنا ما يبرر التجاهل مؤقتا للأخبار، شريطة أن نكون قد وجدنا أنفسنا في خضم بيئة أخبار زائفة أو على الأقل نحسب ذلك، وقد عسر علينا تمييز الغث من الأخبار من السمين. ويكون في الحالين معا يقود استهلاكنا للأخبار إلى تكوين آراء فاسدة واعتقادات باطلة تمنعنا من بلوغ الأخبار الصحيحة. وهو الموقف الذي يتعارض مع رأي باحثة أخرى ترى أن الأخبار مهمة؛ بحيث لا يمكن الامتناع عنها ولو كانت البيئة موبوءة، كما يتناقض مع رأي باحثة أخرى تذهب إلى أن الآخرين مسؤوليتنا، وأن لنا دورا في شبكة الأخبار. ومهما تصرفت الأحوال، فإنَّ الباحثين يدعون إلى تشجيع تكوين شبكة أخبار تكون سليمة لا سقيمة وصحيحة لا مرضية.

· الكتاب: إبستمولوجيا الأخبار الزائفة

· تأليف: تأليف جماعي

· دار النشر: مطابع جامعة أوكسفورد

· سنة النشر: 2021

*** أكاديمي مغربي**

الصين المعاصرة في ثماني كلمات
بياتريشي غاليللي

عزالدين عناية *

يجذب حضور الصين في الساحة الدولية انتباهَ العديد من الخبراء والمتابعين، في مسعى لمحاولة فهم الظاهرة الصينية في أوجهها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وفي نهضتها المتطورة. وإن تشهد المكتبة العربية نقصًا واضحًا في المجال، فعلى خلاف ذلك يجد المعنيِ بالشأن الصيني وفرة من الأعمال في اللغات الغربية تتابع مجالات شتّى. يندرج كتاب الإيطالية بياتريشي غاليللي ضمن هذا الاهتمام بالصين في الغرب. فالكاتبة علاوة على كونها تدرّس اللغة الصينية والترجمة في جامعة «كا فوسكري» في البندقية، تتركز أبحاثها أيضًا على تحليل الوقائع السوسيولوجية التي تميّز المجتمع الصيني وخصوصا منها الوقائع ذات الصلة بالتحولات السياسية.

تحاول الكاتبة الإحاطة بواقع الصين المعاصرة من خلال ثمانية مفاهيم أساسية، تحصرها في كلمات مفتاحية تعنون بها محاور كتابها وهي: الأمّة، والشعب، والحضارة، والتطور، والازدهار، والانسجام، وروح «الأمّة»، والديمقراطية. وهي عبارة عن مواضيع مترابطة على صلة وطيدة بما تعيشه الصين من تحولات اجتماعية واقتصادية وسياسية، أو لنقل حضارية بوجه عامّ. مبرزة الكاتبة في المقدّمة أنّ هذه العناصر الثمانية التي تحاول من خلالها فهمَ الصين المعاصرة هي مرتكزات ضمن تحوّل دائم. لذلك تحرص الكاتبة على تتبّع هذه التغيرات التي تعيشها الصين، مبرزة في الأثناء أشكال التواصل والقطيعة التي يمليها سياق الحراك الدائم.

تسترعي انتباهنا في الصين الحديثة قضية التنوع العرقيّ التي طالما سبّبت اضطرابات عاصفة، ولذلك حرصت النظم المتعاقبة على تسوية المسألة بطرق شتى وأساليب متنوعة. واللافت أنه لم يمضِ على نحت مصطلح «الأمة الصينية» (زهونغهوا مينزو) أكثر من قرن، وقد أتى ذلك في نطاق تقليد السياقات الغربية إبان بحث الصين عن اجتراح إصلاحات لغرض تحقيق نهضتها. ولو شئنا العودة إلى مفهوم أصيل ضمن الواقع الثقافي الصيني، يُعبّر عن التكتل الحضاري، لقلنا «تيانكسيا» وهو ما يعني حرفيا «كل ما هو تحت السماء»، بما يشير إلى الفضاء الإمبراطوري الذي يُقيم فيه «ابن السماء» أو «المفوَّض السماويّ» (تيانزي). حيث يمثّل الإمبراطور عماد النظام الاجتماعي السياسي لما يلعبه من دور رابط بين الأرض والسماء. بَيْد أن هذا التفويض السماوي ليس في المطلق، إذ يمكن للسماء أن تعبّر عن سخطها بوسائل شتى: فيضانات، زلازل، كوارث طبيعية وغيرها، فضلا عن الثورات الاجتماعية التي هي بمثابة نُذر من السماء للحاكم الأرضي المنحرف عن المبادئ الخُلقية.

لقد طُرحت مسألة التعددية في الصين بقوة منذ ما يناهز القرن ونصف القرن. فهناك واقع صيني متنوّع: لغوي وعرقي وديني، طَرح مع فترة الصين الحديثة سؤال كيف يمكن التعامل معه؟ ومنذ تأسيس جمهورية الصين بدأ الميل إلى تمكين جماعة الهان من الوصاية على مختلف القوميات الأخرى، وشكّلت عناصر القوة والبطش والإغراء أبرز السبل المعتمَدة. لكن في ظلّ هذا الإجحاف بقيت الصين تعوزها خطة واضحة مع القوميات الأخرى غير الهان. وإن كان المسعى العام مع حزب «غومينداغ» القومي، قبل سيطرة ماو على السلطة، في «صَيْنَنَة» الأقليات ودفعها لتبنّي لغة الأغلبية وعوائدها وفلسفتها. نجحت تلك السياسة إلى حدّ ما، لكنّها لم تسوّ المسألة بشكل نهائي نظرا لاعتمادها الإلزام لا الإقناع في التحول الاجتماعي، كما كان يقودها الحماس «القوموي» أكثر منه القبول والتسليم من الأطراف الأخرى. لم يحصل التطور الكبير في «تسوية» المسألة العرقية سوى مع الحقبة الماوية. ففي العام ١٩٥٠ جرى تبني سياسة توزيع مكونات المجتمع الصيني إلى إثنيات ضمن صيغة مستلهَمَة من التجربة السوفييتية. تمَّ على إثرها توزيع المجتمع إلى ٥٦ إثنية حضارية وثقافية ودينية. وتقريبا ينتمي عُشُر مجموع الشعب إلى ٥٥ إثنية، وينتسب الباقون إلى أغلبية الهان. في الأثناء نشير إلى أنّ مفهوم التوزيع القومي في الصين، حتى اللحظة الاشتراكية، كان غائبا، فقد كان الأساس المعتمد وهو الشخصية الدينية الثقافية اللغوية بالأساس كمحدّد للتمايز. في حين ضمن التوزيع العرقي المعتمَد مع الحقبة الماوية فقد فازت بعض الانتماءات الدينية كالإسلام بحضور قانوني، وغابت أخرى على غرار الكاثوليكية والبروتستانتية واليهودية، التي بقي حضورها خارج التصنيف المعترف به. سوف تشهد أوضاع الصين الاجتماعية تحوّلًا في العقود اللاحقة، لتواجه تلك التقسيمات الإثنية بعض الارتباك من حيث مواكبة الواقع المتغيّر على مستوى ديني وثقافي، وهو ما سنرى نتائجه في ارتباك العلاقة الراهنة بين حاضرة الفاتيكان وجمهورية الصين الشعبية بشأن موضوع الكنيسة الكاثوليكية.

لقد بقي الشغل الشاغل للصين المعاصرة، على ما ترصد الكاتبة غاليللي، يدور حول تلمّس سُبل النهضة والازدهار. ولذلك تمحورَ الكتاب حول فهم القوة الحضارية التي تميز الصين المعاصرة من خلال معالجة مفاهيم التطور والتقدّم والازدهار وما تستبطنه من دلالات ضمن مسعى الصين لتحقيق ذلك الهدف. تستهلّ الكاتبة حديثها في هذا الموضوع بمقولة تُنْسَب إلى مينشيو، أحد شرّاح كونفشيوس، وتعتبرها تلخّص جوهر الاشتراكية الصينية الحالية، وهي «أنّ العالم ينبني على الدولة، والدولة تنبني على العائلة، والعائلة تنبني على الفرد». وهي بالفعل فحوى الاشتراكية كما تَمثّلها شي جين بينغ، التي تقوم على اثني عشر مبدأ أخلاقيا، يُراد لها أن تقود المجتمع الصيني نحو نهضته المنشودة، والتي تتوزع بدورها على ثلاثة مستويات أخلاقية بين الدولة والعائلة والفرد.

لقد مثّل استنهاضُ الشعب الصيني إيديولوجيا دائمة الحضور ضمن دغدغة الحسّ الوطني العام، وقد شكّل ذلك العنصر التعبويّ النفسي والوطني أحد العناصر الرئيسة في تحفيز المجتمع للسير صوب النهوض والتقدم، وذلك منذ اندلاع حرب الأفيون الأولى ضد إنجلترا وتكبّد الهزيمة ضدّ اليابان. إذ وظفت جمهورية الصين الشعبية في خطابها السياسي عنصر المواجهة للأجنبي، حتى باتت تلك اللحظات الحرجة عنوانا تعبويًا مألوفًا في الأدبيات السياسية الموسومة بـ «قرن الإذلال الوطني». أمسى تحقيق الازدهار مرادفًا لصنع المناعة الحضارية بقصد التوقي من خصوم الخارج. ففي التصور العام ليست الصين حضارة ناشئة بل حضارة تعود إلى ألوف السنين، ولا تقع في قلب العالم فحسب بل في صلب الحضارة أيضا، أو بالعبارة الصينية في جوهر «كل ما يقع تحت السماء» (تيانكسيا). فمنذ حصول ثورة «كسينهاي» وانهيار الإمبراطورية وقيام جمهورية الصين بين ١٩١١ و ١٩١٢، مثّلت تلك الأحداث عودة للبحث عن دور حضاري تليد. وهو ما سيتعزّز في مرحلة لاحقة مع ثورة جمهورية الصين الشعبية بقيادة

ماو تسي تونغ بتلمّس نهوض حضاري مفقود، بوصفه السبيل لتحقيق الخلاص الوطني. فمنذ إعلان جمهورية الصين بدا واضحا سلوك طريق النهضة، بعد أن أمسى الشغل الشاغل للطبقة السياسية والنخبة الفكرية.

ومن هذا المأتى مثّلَ تَنكّب سُبل الازدهار (فوكيانغ) هاجسا لصيقا بإيديولوجيا الدولة الصينية في عهد ماو ومع القيادات السياسية اللاحقة، وإن اتخذ هذا المسار نهجا اشتراكيا مع التغيير الجديد. أضحى الخطاب السياسي الرسمي متمحورا حول مشاغل جديدة أداتها الحزب، بعد أن قاوم المعتدي الخارجي الياباني ولاحق الفاسدين في الداخل من أنصار التوجه «الوطني» الذين وجدوا ملجأ في الانسحاب إلى تايوان. وما انفكّ هذان الحافزان موظّفيْن في البروباغندا الحزبية الراهنة. وقد لاقى النهج الثوري صدى في سنوات الثورة الأولى مع تماهي الصين مع قضايا العالم الثالث، ولا سيما مع تشكّل ما يشبه الجبهة التي ضمّت دول جنوب العالم الباحثة عن الاستقلال والتحرر من الهيمنة الغربية. وهو ما جعل الصين في ذلك العهد تطمح إلى تولي قيادة عالم الجنوب نحو الازدهار والتحرّر بعيدا عن الاستغلال الغربي. ازداد ذلك التحفز منذ أن شهدت الصين شيئًا من التباعد مع النهج الاشتراكي السوفييتي، لذلك مثّل مفهوم «الفوكيانغ» (الازدهار) في أواخر عهد ماو تجاوزًا للقوى العظمى المهيمنة على العالم، المتمثلة في الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة وبريطانيا العظمى، على مستوى الإنتاج الصناعي وفي الآن نفسه العمل على بناء مجتمع اشتراكي عادل ومنصف، وهو ما كانت تطمح إليه بقوة للفوز بقيادة العالم الثالث صوب نهج التطور المنشود.

لكن ما إن حلّت حقبة دينغ شياو بينغ حتى شهدت الأجندة السياسية الصينية شيئا من التحوير، لم يغب عنها التطلع لبلوغ الازدهار المأمول. بدا اعتماد خط التصنيع الغربي جليا دون الانحراف قيد أنملة عن الهدف الاشتراكي، وإن برز ملفّ الديمقراطية وحقوق الإنسان محرجا ومقلقا. وما إن خطت الصين نحو الألفية الثالثة حتى وجدت نفسها تضاهي الدول الغربية وربما تفوق بعضها، من حيث معدلات الناتج القومي الخام، وعلى هذا الأساس دخلت نادي منظمة التجارة العالمية باقتدار حتى غدت تُصنّف ثاني قوة اقتصادية في العالم.

حاولت الصين المتطلّعة إلى بناء نهضتها الغائبة توظيف مختلف عناصر القوة الناعمة، مقتنعة أن القوة الجارحة وحدها لا تفي بتحقيق ذلك الطموح. وفي مسعى لتهدئة الهلع العالمي من الخطر الأصفر، الذي تؤججه الدعاية الغربية، عملت الصين على إنشاء ما أمكن من المراكز الثقافية المعروفة باسم المعهد الكونفشيوشي في الجامعات الغربية. تعمل ضمن مهمة رئيسة متمثلة في نشر

اللغة والآداب والثقافة الصينية والعرض المسالم للروح الصينية، بما يساعد على تمتين عرى التواصل بين الصين ومختلف دول العالم. تراجع الحديث عن الخطر الأصفر في الإعلام الغربي بعد أن أمسى حضور الصين واقعا ملموسا في الحياة الاقتصادية لعديد البلدان. والملاحظ في سياسة الصين، على ما ترصد الكاتبة غاليللي، أنها تتغاير بحسب الفضاءات الحضارية. فمن جانب تسعى الصين لمنافسة الكبار المتحكمين باقتصاد العالم ولتكون المحاور الندّي لأمريكا وأوروبا؛ ومن جانب آخر تتبنى قضايا عالم الجنوب وتسعى لتكون صوت كتلة معتبَرة في السياسة الدولية. أكسبت هذه السياسة المزدوجة الصين حضورًا ونفوذًا بين الطرفين. وعلى ما تُلخّص به الكاتبة المسار الصيني، تذهب إلى أنّ الصين مع ماو تسي تونغ قد قامت على ساقيها، ومع دينغ شياو بينغ عزّزت من مقومات ازدهارها، لتبلغ مع شي جين بينغ مستوى القوة والمناعة. ولذلك تشهد الصين في الوقت الحالي تحوّلا من بلد كبير (داغوو) إلى بلد منيع (كيانغو).

بقيت فلسفة التطور المتقدّم تقوم على الإيمان بأن التطوّر هو ظاهرة طبيعية لا تعرف التوقف، وأن من يحول دونها محكوم عليه بالانهزام لا محالة. ومن هذا الباب تطلعت الصين إلى إيجاد رؤية تجمع بين التقدم والتطور في آن، وهو الشكل الذي نظرت به إلى ماضيها ومستقبلها. لقد ترسّخ مفهوم النهضة الصينية في العهد الماوي من خلال التعويل على الذات وعلى الإمكانيات الذاتية في خوض ملحمة النهوض. وهو ما تمثّل في النظر للعمل كونه ليس سلعة تباع بمقابل، بل هو حق وواجب، وهو ما تطور في فترة ما بعد ماو بوصفه حالة للتطور والازدهار.

وما إن وَلجت الصين الألفية الثالثة حتى رفعت شعار «التطور هو الحقيقة الوحيدة الصلبة»، بمعنى أن التطور هو السند الرئيس للاستقرار الاجتماعي، وهدفت من وراء ذلك إلى بلوغ مرحلة «التطور النوعي» وهو ما تعيشه في الظرف الراهن الذي ترنو فيه إلى بلوغ مراتب عليا في التصنيع الاستراتيجي في قطاعات الذكاء الاصطناعي، والطاقة المتجددة، وصناعة الأدوية البيو.

لم تُبعد تلك الإنجازات الباهرة الصين عن خطها الاشتراكي المعهود. صاغ دينغ شياو بينغ فحوى التمايز بين الرأسمالية والاشتراكية قائلا: «لا يتلخص الاختلاف الجوهري بين الاشتراكية والرأسمالية في الأهمية التي تُولَى إلى التخطيط أو إلى قوى السوق. فالاقتصاد التخطيطي ليس اشتراكية، لأنّ الرأسمالية بدورها لها مخططاتها، وليس اقتصاد السوق فحوى الرأسمالية، لأن الاقتصاد الاشتراكي بدوره له أسواقه أيضا، فالتخطيط والسوق كلاهما وسيلتان اقتصاديتان لا غير. إن جوهر الاشتراكية يتمثل في تحرير القوى المنتجة وتطويرها، وإلغاء الاستغلال والاستقطاب لبلوغ الازدهار العمومي». ولكن هذا الازدهار ضمن المنظور الصيني، كما تبيّنُ غاليللي، أساسه «الانسجام»، والانسجام هو مصطلح ضارب في القدم في الثقافة الصينية ويعود إلى بدايات الكونفشيوسية. جرت استعادة المصطلح في الخطاب السياسي الصيني مع العشرية الأخيرة من خلال الدعوة إلى المجتمع المنسجم (هيكسي شيهوي) أي المجتمع القائم على الديمقراطية والحقوق. ويتطور هذا الانسجام وفق المنظور الصيني ليبلغ مستوى متقدما بغرض تحقيق التآلف بين الإنسان وسائر مكونات الطبيعة وهو ما يهدف إلى خلق حضارة إيكولوجية.

سنة ٢٠١٢ رفع الحزب الشيوعي الصيني شعار خمسة منجزات حضارية في منجز واحد، والمراد بها المنجز الاقتصادي، والمنجز الثقافي، والمنجز السياسي، والمنجز الاجتماعي وفي الأخير المنجز الإيكولوجي. تُعتَبر هذه العناصر ملخّص المسار الحضاري الصيني الهادف إلى بلوغ «الحضارة الروحية» جنب «الحضارة المادية»، وذلك كردّ ضمني على المفهوم الغربي ذي البعد الواحد.

· الكتاب: الصين المعاصرة في ثماني كلمات
· تأليف: بياتريشي غاليللي
· الناشر: إيل مولينو (مدينة بولونيا-إيطاليا) «باللغة الإيطالية»
· سنة النشر: 2021
· عدد الصفحات: 191 صفحة

* أكاديمي تونسي مقيم بإيطاليا

سوسيولوجيا الهندسة المعمارية والمهندسون المعماريون
أوليفييه شادوا

سعيد بوكرامي *

إن اللقاء بين العمارة وعلم الاجتماع متجذر بقوة منذ الستينيات، وهو العقد المعروف بالازدهار في مختلف العلوم ومن بينها العلوم الاجتماعية والإنسانية. على الصعيد المعماري، حان الوقت للانتهاء من نموذج «الفنون الجميلة» وظهور ممارسة ملتزمة، لأن صورة الفنان المعماري، المنسق الكبير للمشيدين كلهم، فقدت بريقها وهيبتها. لذلك، وفي إطار شبكة واسعة من المفاهيم والأدوات وأنواع المقاربات، يتقاطع المجالان، المعماري والاجتماعي، مما ينتج عنه ظهور العديد من النظريات والدراسات، التي أصبح بعضها من الكلاسيكيات العظيمة والمؤسسة للهندسة المعمارية.

إن الاستكشاف الدقيق والاستنتاج النقدي لهذا العمل الأكاديمي مكرس للهندسة المعمارية: التصميم، والاستخدامات، والتدريس، والتطبيق، وما إلى ذلك، إلا أن هدف الكتاب يمتد إلى ما هو أبعد من تحصيل حاصل؛ إذ يقدم المؤلف من خلال الجمع بين نتائج بحثه صورة ديناميكية ومعاصرة لمهنة تتعرض هويتها وممارستها إلى سياق متغير باستمرار، لذلك يشكل هذا الكتاب مفتاحًا لمعرفة وفهم العالم المعماري، منذ بداياته المتعثرة إلى موجات المد والجزر التي عرفها عصر الليبرالية الجديدة.

تشكل الهندسة المعمارية اليوم موضوع بحث وتدريس في العلوم الإنسانية والاجتماعية في المدارس التي توفر التدريب على مهنها المتعددة. هذه هي العلاقات التي يسأل عنها أوليفييه شادوا، الذي يبدأ عمله - الذي صار بفعل منهجيته التعليمية دليلا للطلاب- فينطلق من سؤال إشكالي: «هل يمكننا تحديد علم اجتماع للهندسة المعمارية؟

تتناول فصول الكتاب الثمانية عدة أبعاد، وهي: الاهتمام بدراسة العمارة والمهندسين المعماريين لمعرفة العالم الاجتماعي، وتشكيل مجموعة من الممارسات والأفراد الذين ساهموا في إخراج فضاء ثقافي إلى حيز الوجود، بالإضافة إلى استخدامات علم الاجتماع في إنتاج وتحليل العمارة مع الفروع الأخرى للتخصص نفسه، بما في ذلك علم اجتماع الاقتصاد والفن والثقافة والاستهلاك والعمل والمهن.

يسعى الفصل الأول إلى تحديد تاريخ اللقاء بين علماء الاجتماع والمهندسين المعماريين في الستينيات، في الوقت الذي شكك فيه المهندسون في نموذج الفنون الجميلة. وفي هذا السياق، تشاركت العلوم الإنسانية والاجتماعية (علم الاجتماع، والجغرافيا، وغيرها) في تجديد التعليم المعماري. وكان ثمرة هذا التاريخ النشيط الحضور الحافل للتعلُّمات الاجتماعية داخل المدارس الوطنية للهندسة المعمارية؛ ومع ذلك، لم يكن المدرسون جميعًا متخصصين، كما أن عدد المدرسين في المناصب الذين يعرّفون أنفسهم حصريًا على أنهم علماء اجتماع قليل جدًا. كانت التعريفات المزدوجة (مهندس معماري-عالم اجتماع، مهندس مدني-عالم اجتماع، عالم سوسيو-اقتصادي، إلخ) أكثر تواترا لأنه من الضروري الحصول على درجة الدكتوراه للتدريس في مدارس الهندسة المعمارية. تختلف العلاقات مع التخصص أيضًا، حيث يلعب بعض المدرسين لعبة علم الاجتماع للهندسة المعمارية بينما يرتبط آخرون، الأصغر سنًا، بصفة عالم الاجتماع. ومع ذلك، فإن ثمة شيئا مشتركا،لأن الهندسة المعمارية تجمعهم ؛ من جانبهم، بعد أكثر من خمسين عامًا من وجود علماء الاجتماع في المدارس الوطنية للهندسة المعمارية. خصص المهندسون الخطاب الاجتماعي في ممارستهم المهنية.

يعتبر تدريس العلوم الإنسانية والاجتماعية في مدارس الهندسة المعمارية منذ إصلاحات أواخر الستينيات مثالاً جيدًا للانتقال من «المهندس المعماري» إلى «المهندس المثقف». لكن طموح علماء الاجتماع وهؤلاء الرواد المعماريين-علماء الاجتماع، انتهى بالفشل إذا اعتبرنا أن علم الاجتماع - أشبه بالتاريخ، فقد تحول إلى تخصصات مطبقة على الهندسة المعمارية، لكي لا نقول إنها تخصصات مضمومة في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية (SHS) وفي مديرية العمارة والتراث (Dapa) التابعة لوزارة الثقافة الفرنسية. من بين عشرين مدرسة عليا وطنية فرنسية للهندسة المعمارية، فإن عدد علماء الاجتماع «الحقيقيين» متفاوت للغاية، ناهيك عن الملامح متعددة التخصصات، المعلنة أو لا، وتتجسد في تنوع تعليمها أو إنتاجها العلمي. وبالتالي ثمة ثلاثة تمثيلات رئيسية للعمل الاجتماعي تتعايش فيما بينها وهي: علم مستقل، وتقنية اجتماعية، وتلك الخاصة بالفلسفة الاجتماعية (ص ٤٥).

يستعرض الفصل الثاني موضوع «علم اجتماع الهندسة المعمارية» مبرزا طريقة تحليل المنتجات المعمارية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، إذ يجمع «العصر الأول» بين الأعمال «ما قبل الاجتماعية» التي تصور الهندسة المعمارية كمواد لفهم الظواهر الاجتماعية أو الثقافية، بحيث تصف المناهج المستوحاة من الأنثروبولوجيا البنيوية مع (إروين بانوفسكي، ومايكل باكساندال ...) الفضاء من حيث بناؤه وفئات تصنيفه التي تستهدف المزيد من الأبحاث التجريبية للمنشآت واستخداماتها وأنماط إظهارها ؛ لهذا السبب، يتجه علم اجتماع العمارة نحو ظواهر علم الاجتماع الحضري والمهن المرتبطة بالعمارة أكثر من اهتمامه بعلم اجتماع الفن أو الثقافة.

تلقي الفصول الثلاثة التالية الضوء على أهمية المنهج الوظيفي للعمارة وتحدياتها المعاصرة. بداية تعرف الهندسة المعمارية لأول مرة من خلال استخداماتها، وبالكاد تأخذ في الاعتبار من قبل علم اجتماع الثقافة، في حين أن السياسات العامة تعتبرها منذ فترة طويلة أداة عمل مجالية لتنمية القطاعات الحضرية ؛ التي تعد بحد ذاتها ظاهرة حديثة. وهذا ما يبرزه الفصل الثالث، الذي يختتم بالمزالق المستمرة التي سيواجهها علم اجتماع المعمار بحيث كانت الدراسات الاستقصائية تفضل دائمًا الحديث عن مسألة الإسكان، ولا تعتبر «الأعمال المعمارية» ممارسة ثقافية. على العكس من ذلك، يناضل المؤلف من أجل منهج تجريبي جديد لـ«الثقافة المعمارية» ويعطي الأولوية لمواقف التلقي والجماهير والوساطة. كما يلح الفصل التالي على البعد الرمزي للفضاءات المأهولة جميعها التي لا تكتفي بتلبية الاحتياجات الأساسية، وهو البعد الذي يظهر بوضوح من خلال البحث الذي ينهجه العالم هنري لوفيبفر أو الذي يتعلق بـ «الكفاءة العادية» للسكان؛ لأن للعمارة أيضًا بُعدا سياسيا حاول المؤلف أن يسلط الضوء عليه في الفصل الخامس الذي خصصه لصناعة مدينة الليبرالية الجديدة.

يدرج المؤلف المفاهيم الجديدة التي تشكلت في السبعينيات موليا عناية فائقة بأسباب نزولها وتأثيرها، وخلال هذه الفترة من التأمل والتجريب، ساعد اللجوء إلى مفاهيم وأساليب العلوم الاجتماعية على استبدال شخصية «المهندس المثقف» بشخصية «المهندس المعماري الفنان» (ص ١٢١). إذا استمر هذا الالتزام اليوم من خلال البحث عن هندسة معمارية «قادرة»، ولهذا يثمن «عودة الرمز» التي تمت في السنوات الأخيرة، عبر تحدي «ما بعد الحداثة». نشرت هذه الحركة مفهوم الصرح أو النصب التذكاري ليشمل مجموعة متنوعة من المباني (مراكز التسوق، والإسكان، وغيرها) وبذلك مهدت الطريق للاستخدام الجمالي والتواصلي للهندسة المعمارية، في سياق تسليع قيم العالم الإبداعي. وكان من شأن ظهور التعددية الأسلوبية في العمارة أن يتقارب في النهاية مع مجتمع ما بعد الصناعة أو ما بعد الفوردية. لم يعد العمل المعماري في المدينة قائمًا على أي يقين، مع التخلي عن النموذج الحداثي الذي ساد منذ فترة طويلة بين المهندسين المعماريين، ولكن أيضًا مع ظهور الجهات الفاعلة المنتمية للقطاع الخاص في التخطيط. علاوة على ذلك، ظهرت مراكز جديدة لصنع القرار في مجال تخطيط المدن، فتضاعفت الاتجاهات المعمارية، مما يشير إلى نهاية نموذج قائم على التخطيط والثقة في التقدم التقني، لظهور نموذج معماري يراهن على أنماط المدن الاستعراضية. وبذلك أصبح الطابع المعماري في خدمة التسويق الحضري والمنافسة الدولية على المناطق الحضرية.كما تعيد السياحة أيضًا تعريف المدن التي تستوطنها المجمعات الفندقية والمناطق السياحية ... ومن هنا يأتي الاتجاه المزدوج الذي يعمل على هندسة معمارية استعراضية: تجمع بين الإرث المعماري والعروض الترفيهية. تحتل الهندسة المعمارية مكانة أساسية «كموضوع للتواصل» استنادا إلى مكونين: «المشروع الكبير» الذي يساهم فيه المعماريون المشهورون النجوم على غرار نجوم الموضة، ونتيجة لذلك ستصبح العمارة في النهاية «فنًا هجينا» تتقاطع فيه اعتبارات الذوق والزخارف والموضوعات والأفكار الوظيفية والأهداف الاقتصادية.

تركز الفصول الثلاثة التالية على مجموعة من المهندسين المعماريين وأنشطتهم، بحيث يتساءل الفصل السادس عن هويتهم المهنية ويظهر الأهمية المستمرة للنموذج الليبرالي، الذي لم يعد يتوافق مع واقع المهنة. في الواقع، أصبحت المهمة الإجمالية للمهندس الآن موزعة على مهام متعددة بينما تبرز مهن جديدة ترافقها، مثل تلك المعروفة باقتصاديي الإنشاءات أو المكلفين بالمبرمجة. هذه التغييرات مصحوبة بتحولات دلالية تؤدي إلى استخدام

مصطلحات جديدة: مدير المشروع والمصمم ومنفذ العمليات بدلاً من المهندس المعماري والمفوض والورشة.

إن استمرار الهوية القائمة على الممارسة الليبرالية يسهم في خفض مستوى الأجر ويربطه بتخفيض قيمة المهنة. يتعامل الفصل التالي مع العمل المعماري، الذي يقع في خضم لعبة الترابط مع المهن الأخرى ل(الاقتصاديين، والمهندسين المبرمجين، ومهندسي المجالات الطبيعية، ومخططي المدن، وغيرهم). إن المسارات والأنشطة متعددة ؛ «لم تعد الإشارة إلى اسم المهندس المعماري كافية لتحدد عمله » (ص ١٦٩). يذكرنا المؤلف أن المهندسين المعماريين لا ينتجون وحدهم، وتبرز الأهمية المهنية في مجال إدارة المشروع، حيث أن المعارضة الأكثر رسوخًا هي تلك التي تفصل بين المعماريين والمهندسين. في مواجهة التحولات المتعددة التي تؤثر على عالم الإنشاءات (منطق التجميع، والعقلنة، والتخصص) والديناميات الداخلية (نمو قوتها العاملة)، فإن مهنة المهندس المعماري تقوم مع ذلك بالحفاظ على الإيمان بمهارات الفرد للاستمرار في التواجد. تُظهر هذه الهيئة المهنية قدرة حقيقية على المحافظة على الإيمان بإمكانياتها الما قبل الرأسمالية لـ «المهنة الليبرالية» والممارسة المهنية العامة، حتى على حساب إنكار أعضائها لمنطق التخصص الذي يسود داخل الوكالات. والأكثر إثارة للدهشة هو قدرتها على التعددية في سياق زيادة تقسيم العمل، وبذلك تضاعف لقب المهندس مع مصطلح محدد (مهندس معماري - مخطط حضري، مصمم معماري، إلخ). في هذا الصدد، يفترض المؤلف أن سحر لقب المهندس وقوة غموض محددات تخصصه، التي يحفاظ عليها في ممارسته المهنية، يسمح له بهذا التعدد المهني «مما لا شك فيه أن هذا التأكيد على الكفاءة العامة في جميع المجالات هو الذي يكمن في قوة إعادة تموضع المهندسين المعماريين، ليس حسب دورات السوق فقط ولكن أيضًا حسب المنافسة مع المهن الأخرى في صناعة المنشآت، وإدارة المشاريع» (ص ١٩٧).

يقدم المؤلف تحليلًا مثيرًا إلى حد ما ل«علم اجتماع الإنشاءات» بناءً على قراءة الأعمال الاجتماعية المكرسة للعمارة والمهندسين المعماريين، ويساهم هذا الكتاب في فهم العالم المعماري في فرنسا على وجه الخصوص وتغيراته المعاصرة، كما يلقي الضوء على ديناميات مهنة الهندسة المعمارية التي تواجه منافسة قوية من مهن الإنشاءات الأخرى.

تكمن أهمية هذا المصنف المهم في الإجابة على التساؤل: هل تشكل العمارة موضوعًا لعلم الاجتماع؟كما تتمثل أصالته في عرض تركيبي للأعمال الحالية حول الهندسة المعمارية والمهندسين المعماريين مما يجعل الرابط بين الأبعاد الثلاثية: آليات وممثلي الإنتاج المعماري والحضري، والمستخدمين والسكان، والمباني نفسها تتساوق وتتعامد وتتداخل لتتحول إلى إنتاج رمزي.

إذا كان الكتاب موجها في المقام الأول إلى طلاب الهندسة المعمارية وتخطيط المدن، فإنه سيكون أيضًا موضع اهتمام علماء الاجتماع وطلاب العلوم الاجتماعية الذين يشتغلون على علم اجتماع المدينة.

وفي الختم لا بد من التذكير بأن أوليفييه شادوا، هو أستاذ علم الاجتماع بارز في كلية بوردو للهندسة المعمارية، وباحث في باف، مركز إميل دوركهايم، المركز الوطني للبحث العلمي. ومؤلف كتاب «الأنشطة المعمارية في أوروبا، الممارسات الجديدة»، وكتاب «مدينة الأفراد» (٢٠٠٤)، وكذلك كتاب «أن تكون مهندسًا، فضائل عدم التحديد» (٢٠٠٧) و«مدينة الملجأ» (بالتعاون مع جيل راجوت، ٢٠١٦). كما ينشر بانتظام في المجلات العلمية والمصنفات الجماعية.

- الكتاب: سوسيولوجيا الهندسة المعمارية والمهندسون المعماريون.
- المؤلف: أوليفييه شادوا
- دار النشر: بارونتيز، مارسيليا، فرنسا
- سنة النشر: 2021
- عدد الصفحات: 216 صفحة
- اللغة الفرنسية

*** كاتب ومترجم مغربي**

الانعكاس الديموغرافي الكبير: مجتمعات الشيخوخة، تضاؤل التفاوت الاجتماعي، وانتعاش التضخم

تشارلز جودهارت ومانونج برادها

محمد السالمي *

خلال العقود الثلاث الماضية، ارتقت الصين لتكون ضمن الكيانات الاقتصادية العظمى في العالم، وتجدر الإشارة إلى أن النجاح الصيني بُني على عوامل عدة، متمثلة في الخلفية الاجتماعية والثقافية والتاريخية، والإرادة السياسية، ووجود قوة عاملة مرنة ومختصة، تغذيها ضوابط رأس المال، والتطوير المستمر للبنية التحتية، واستيعاب المعرفة التكنولوجية الغربية، كل ذلك صبغها بالمثال الحي للعولمة. في المقابل، فإنَّ مساهمة الصين مستقبلا في النمو العالمي قد تتأثر مع تقلص السكان في سن العمل، وزيادة كبار السن.

يناقش كل من تشارلز ومانوج في كتابهما « الانعكاس الديموغرافي الكبير»، أن القوى الكامنة في الديموغرافيا والعولمة ستنعكس في المستقبل في ثلاثة اتجاهات عالمية تتمثل في شيخوخة السكان، وارتفاع التضخم وانخفاض التفاوت الاجتماعي. ما يجادل به المؤلفان هو أن القوة الدافعة الرئيسية وراء هذه الاتجاهات المضادة في العقود الأخيرة كانت مزيجًا من الديموغرافيا والعولمة. على وجه الخصوص، إدماج الصين وأوروبا الشرقية إلى النظام التجاري العالمي، أدى إلى طفرة هائلة في المعروض من العمالة المتاحة في العالم. ولكن مع انخفاض السكان وارتفاع نسبة كبار السن يؤدي إلى ضغوط تضخمية في المستقبل. كما يغطي المؤلفان العديد من العوامل الاجتماعية والسياسية، بالإضافة إلى العوامل الاقتصادية الكلية البحتة. كما يتناولان موضوعات تشمل الشيخوخة والتفاوت الاجتماعي والشعوبية والتقاعد وغيرها.

وللتعريف بمولفي الكتاب، فتشارلز هو أستاذ في العلوم المالية والمصرفية في كلية لندن للاقتصاد، كما عمل كمستشار نقدي في بنك إنجلترا لمدة ١٧ عاماً. تتمحور أعمال تشارلز في الأسواق المالية والسياسة النقدية، وكذلك الاستقرار المالي.

أما مانوج برادهان فهو الرئيس التنفيذي لشركة Talking Heads، التي قام بتأسيسها في عام ٢٠١٦. كما شغل سابقًا منصب العضو المنتدب في مورجان ستانلي.

لم تكن الزيادة في عرض العمل المتاح في الصين بسبب إدراجها في نظام التجارة العالمي فحسب، بل كانت أيضًا بسبب عاملين إضافيين رئيسيين، أولهما الهجرة الداخلية الهائلة من المقاطعات الداخلية الزراعية إلى المقاطعات الصناعية وكذلك إلى المراكز الحضرية في الصين والمتمثلة في المناطق الساحلية. أما العامل الثاني، فهو التغيير الهائل في نسب الإعالة، ويرجع ذلك جزئيًا إلى «سياسة الطفل الواحد» مما أدى إلى انخفاض حاد في معدلات المواليد، وكذلك إلى انخفاض نسبي في المعالين من الشباب، وتجاوزهم خلال هذه العقود القادمة يسهم في ارتفاع نسبة الشيخوخة. وبالمثل، فقد حدثت هذه التغيرات الديموغرافية في كل الاقتصادات المتقدمة تقريبًا نتيجة الانخفاض الحاد في نسبة الشباب خلال العقود القليلة الماضية. ويؤكد المؤلفان أن انخفاض نسبة المعالين من الشباب هو بحد ذاته عامل مضاد للتضخم. بعبارات بسيطة للغاية، يجب على العمال إنتاج سلع وخدمات ذات قيمة أكبر من أجورهم؛ وإلا فلن يكون من الاقتصادي توظيفهم. أدى تحول وظائف المصنّعين من الغرب إلى الشرق نتيجة توفر القوى العاملة ذات التكلفة المنخفضة، وكذلك تحول الإنتاج في الغرب من التصنيع إلى الخدمات، إلى ضعف كبير في القوة التفاوضية للعمال. أفرز هذا التحول ارتفاعا كبيرا في الأجور في الشرق. حيث أدى الارتفاع النسبي في الدخل الآسيوي وكذلك في أوروبا الشرقية إلى انخفاض كبير في التفاوت الاجتماعي العالمي، بينما بدأ التفاوت داخل هذه البلدان بالارتفاع. في المقابل، فإن أجور العمال غير المَهَرة في الغرب راكدة، في حين استمرت أجور العمالة الماهرة بالزيادة بشكل ملحوظ للغاية. ونتيجة لذلك، ارتفع مستوى التفاوت الاجتماعي بشكل كبير، لا سيما في الولايات المتحدة الأمريكية.

يتطرق الكتاب أيضًا إلى شيخوخة السكان. حيث يتمثل أحد الجوانب غير السعيدة في ارتفاع متوسط العمر في زيادة نسبة أولئك الذين يعانون من الأمراض المزمنة. ونظرًا لأن متوسط الأعمار في ارتفاع متزايد، فإن النسبة المئوية للزيادة في إجمالي عدد السكان من كبار السن، ستنمو بشكل أسرع بكثير من بقية السكان، وستكون إعالتهم المتوقعة عبئا متزايدا على المعاشات التقاعدية، كما أن البحث والتشخيص والعلاج كلها تعاني من نقص التمويل، بالإضافة إلى حاجة كبار السن للرعاية والدعم الطبي.

ولكن ماذا عن المستقبل؟ من أبرز التحديات المستقبلية التي تواجه الاقتصاديات الكبرى مثل ألمانيا والصين، ارتفاع نسبة الإعالة وانخفاض عدد السكان وتراجع إنتاجية العمال . يشير المؤلفان، في حال استمرار المؤشرات الديموغرافية المذكورة فإن البدائل تنطوي على ضرائب أكبر، ورفاهية أقل، والمزيد من التضخم، أو التخلف عن السداد. لذلك، على سبيل المثال ، ستكون النتيجة المحتملة هي فرض ضرائب أعلى، خاصة على الأغنياء وشركات الكربون الضار. أما في سياق السياسة، شهدت العقود الأخيرة توافق الرؤى بين محافظي البنوك المركزية ووزراء المالية، حيث سمح الانخفاض المستمر في أسعار الفائدة الاسمية بأن تظل معدلات خدمة الدَّيْن مستقرة، بل وانخفضت بشكل طفيف. هذه الصداقة التكافلية تتجه نحو طلاق حاد، وبالتالي سيكون مستقبل الأهداف التضخمية أكثر

صعوبة وإشكالية مما كان عليه في الماضي. وتعليلا على طرح الكتاب، صحيح أنه يعيد تقييما لديناميكيات التضخم، ويذكر الجمهور بأن تفسير التضخم عبر مزيج السياسة المالية والنقدية يعطي نتائج مضللة. ولكن سيحدد الوقت ما إذا كان تحليل المؤلفين قد أثبت صحة ذلك.

يعيد الكتاب تقييم هذه التحولات الديموغرافية في سياقات أخرى من العالم. يطرح المؤلفان مثال اليابان حيث إنها كانت في طليعة التغيير الديموغرافي المذكور آنفاً والمتمثلة في ارتفاع نسبة المتقاعدين، وانخفاض عدد السكان في سن العمل، ولكنها لم تنعكس على التضخم أو التفاوت الاجتماعي. ولكن هناك عددًا من العوامل التي يجب مراعاتها فيما يتعلق باليابان. أولاً ، كانت الإنتاجية لكل عامل في اليابان أفضل بكثير من أي دولة أخرى تقريبًا. ثانيًا، حدثت الشيخوخة المبكرة للقوى العاملة اليابانية تزامنا مع وجود العمالة بوفرة عالمياً. استفادت الشركات اليابانية من ذلك عبر نقل إنتاجها من السلع وبعض الخدمات إلى الخارج، وتمكينها من الحفاظ على تنافسيتها وتقليل القوى العاملة في اليابان بشكل حاد للغاية، لذلك انتقلت القوى العاملة في اليابان بشكل كبير إلى قطاع الخدمات. ثالثًا، إن الروح السائدة في اليابان عند مواجهة انخفاض في الطلب لا تتمثل في خفض العمالة، ولكن تقليل ساعات العمل.

كما يذكر المؤلفان بعض العوامل التي قد تفضي بتخفيف الضغوط التضخمية من خلال تحويل الإنتاج إلى إفريقيا والهند حيث أن عدد السكان يتزايد بوتيرة سريعة. من جهة أخرى، إن الكيفية التي سيتعامل بها العالم مع إفريقيا خلال العقود القادمة هو سؤال كبير حقًا. وتبرز تحديات عدة تكمن في مشكلة كفاءة وقدرة الحكم والإدارة التكنولوجية المحسنة. وبالتالي يشكك الكتاب في تقليل الضغوط التضخمية والقدرة على موازنة الاتجاهات الديموغرافية والعولمة المعاكسة الحالية.

أما من جانب التفاوت الاجتماعي وظهور الشعبوية، فيناقش الكتاب أنه بعد قرنين من التفاوت العالمي المتزايد، أدى النمو المتسارع في آسيا مقارنة بالغرب إلى تراجع هذا التفاوت. في المقابل، ازداد التفاوت الاجتماعي داخل البلدان بشكل عام. تتوزع المسؤولية عن هذا التفاوت، في التكنولوجيا، وتزايد قوة الاحتكار، والزيادة في عرض العمالة بسبب العولمة والديموغرافيا. ربما

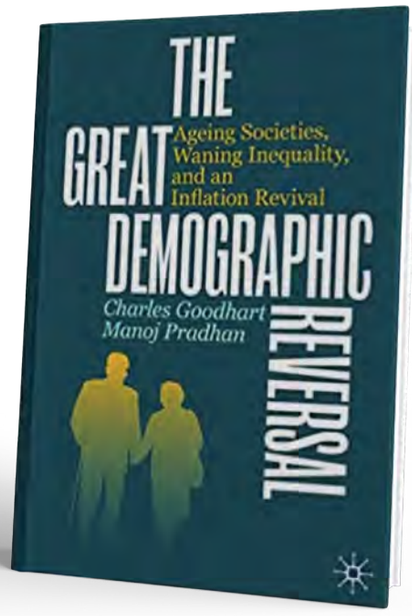

كان المرء يتوقع أن يفيد هذا التفاوت المتزايد داخل البلد الأحزاب السياسية ذات الميول اليسارية، وهذا ما حدث في أمريكا اللاتينية. أما في أمريكا الشمالية وأوروبا فقد أدى ذلك إلى زيادة الدعم للأحزاب اليمينية الشعبوية. ويعزا هذا إلى حد كبير إلى نفور الجمهور من الهجرة. ويجدر القول أن الهجرة هي قضية تقسم بشدة آراء خبراء الاقتصاد، من الذين يرحبون بها بشكل أساسي ، والذين يريدون تقييدها.

يتساءل المؤلفان حول مقدرة البنوك المركزية في تحقيق هدف التضخم الخاص بها، ففي ظل الظروف العادية، سيؤدي بها إلى رفع أسعار الفائدة. ولكن المشكلة تكمن في نسب الديون في كلا القطاعين العام والخاص، ففي معظم البلدان هي مرتفعة للغاية لدرجة أن أي ارتفاع كبير في أسعار الفائدة من المرجح أن يعيد تلك الاقتصادات إلى الركود، مما سيجعل كل شيء أسوأ. ستؤدي المخاوف بشأن تأثيرات ارتفاع أسعار الفائدة في ظل هذه الظروف إلى ضغوط سياسية على البنوك المركزية للسماح بالتضخم الذي يتجاوز بشكل كبير المستويات المستهدفة الحالية .

في الختام، إن التحدي الذي يواجه صانعي السياسات يتمثل في جمع الأموال لتمويل احتياجات الرعاية الصحية للسكان المسنين المتزايدين. تشير المشكلة إلى أن الزيادات الضريبية ربما تكون الحل الوحيد، وقد تتعدى لتشمل زيادة ضريبة الدخل، والتغييرات في سياسات ضرائب الشركات، وإلى الزيادات في الضرائب على الممتلكات. يقود النفور السياسي زيادة الضرائب إلى استنتاج أنها ستؤدي إلى تضخم أعلى، وسياسة نقدية أكثر صرامة، واحتمال فقدان استقلالية البنك المركزي. في حين أن الآفاق مخيفة، فإن البحث والتحليل المدروس يوفران للقارئ نافذة ثاقبة في مشاكل السياسات التي تواجه الاقتصادات النامية والناشئة على حد سواء في مواجه المستقبل.

هذا الكتاب هو مراجعة حديثة حول تأثيرات الديموغرافيا على الاقتصاد الكلي، والتدابير الممكنة لمكافحة التضخم، وعيوب الضرائب، والعديد من الأشياء الأخرى. لسوء الحظ، يتبع المؤلفان التحليل المبسط مما ينتج عن ذلك رؤية مشوهة للغاية.

على سبيل المثال، يذكر الكتاب أمثلة إذا لم يتغير معدل المشاركة، إذا لم تتغير عادات الاستهلاك، إذا ظل النظام النقدي دون تغيير، إذا لم تكن هناك صراعات أو كوارث كبيرة، إذا كانت التدفقات التجارية الدولية لا تتغير، ولذلك مع الكثير من الشروط تكون هناك علاقة سبب مقابل نتيجة، ولكن العالم أعقد من ذلك بكثير.

قدم لنا تشارلز جودهارت ومانونج برادهان جولة قوية مفصّلة بشكل مثير للإعجاب ومدروسة بدقة للقوى الديموغرافية التي أثرت على تطور الاقتصاد العالمي وعلاقاتها المتبادلة على مدار العقود الماضية. وكيف أثرت هذه التطورات الديموغرافية على التضخم والعمالة ونمو الناتج المحلي الإجمالي على مدى المتوسط والطويل. كتاب «الانعكاس الديموغرافي الكبير» يجب أن يقرأه كل شخص لديه اهتمام بما يتجه إليه الاقتصاد العالمي. هو كتاب رائع، ولا داعي لأن تكون خبيرًا اقتصاديًا للاستمتاع به. حاز الكتاب على استحسان القراء والنقاد وتم تصنيفه ضمن أفضل الكتب الاقتصادية لعام ٢٠٢٠م.

- الكتاب: الانعكاس الديموغرافي الكبير: مجتمعات الشيخوخة ، تضاؤل التفاوت الاجتماعي، وانتعاش التضخم
- المؤلفان: Charles Goodhart and Manoj Pradhan
- الناشر: Palgrave Macmillan
- سنة النشر: 2020
- عدد الصفحات: 280
- اللغة: الإنجليزية

*** كاتب عُماني**

إعادة اكتشاف القرآن
إيميليو بلاتي

التجاني بولعوالي *

يُعتبر إيميليو بلاتي Emilio Platti أحد أعمدة الدراسات اللاهوتية والإسلامولوجية المعاصرة سواء في أوروبا لكونه إيطالي الأصل وبلجيكي التربية والإقامة والجنسية أو في العالم العربي لاعتباره عضوًا مهمًا في معهد الدراسات الشرقية للآباء الدومنيكان بالقاهرة. بعد سلسلة من البحوث والكتب المُثيرة حول الإسلام مثل: «هل الإسلام عدو بطبعه؟»، «هل الإسلام غريب؟»، «الإسلاموية» وغيرها، يُصدر كتابًا جديدًا تحت عنوان: «إعادة اكتشاف القرآن»، الذي نعقد له هذه المُراجعة.

ينطلق بلاتي في اشتغاله بالقرآن من السؤال البحثي: كيف نشأ وتأسس نص القرآن العربي كما وصل إلينا اليوم؟ وهو يعتمد في تناوله مُقاربة تاريخية ترتكز على جانبين:

أحدهما الجانب التاريخي للمسألة وهو نتيجة للبحث وإعادة الاكتشاف الحديث لمجموعة من المنقوشات الحجرية التي تم العثور عليها في مختلف مناطق شبه الجزيرة العربية. ويظهر من خلالها مدى التأثير الكتابي: اليهودي، ثم لاحقًا المسيحي في نشوء الكتابة العربية منذ القرن السادس للميلاد.

والجانب الآخر يتعلق بالنسخة الرسمية للقرآن، وبالتحديد الطبعة المصرية التي ظهرت عام ١٩٢٤، حيث التمييز بين السور التي نزلت في مكة والسور التي نزلت في المدينة. لكن ظهر عكس ذلك في نسخ متأخرة من النص القرآني نفسه، وهو أن بعض الآيات التي اعتبرت مدنية في البداية تم لاحقًا إدراجها في سور مكية، ما يعني أن النص القرآني خضع إلى تعديل ما. وعلاوة عن ذلك، فإن العلماء المسلمين القدامى أنفسهم لم يكونوا على علم يقيني بالترتيب الذي نزلت عليه الآيات القرآنية.

وقد توزع الكتاب على مقدمة وخمسة فصول تم فيها مناقشة قضايا: خط القرآن الحجازي، انشقاق عقيدة التوحيد، محمد واعتناق الحنيفية، من الدعوة إلى التدوين، قرآن آخر، بالإضافة إلى خاتمة بأهم خلاصات البحث.

خط القرآن الحجازي

يعتمد الكاتب على أقدم الآثار التي سُجل فيها القرآن لاستيعاب حقيقة النص القرآني العربي الذي بين أيدينا اليوم، ويشير إلى المخطوطة المحفوظة في مكتبة جامعة برمينغهام التي أثبت الفحص الكربوني أنها تعود إلى ما بين ٥٦٨ و٦٤٥. وهذا ما يُثير مسألتين: إحداهما أن هذا التاريخ يرجع إلى ما قبل ولادة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والأخرى أن هذا الاكتشاف العلمي يُفنّد الرؤية الاستشراقية السائدة التي تقول بأن النص العربي الأصلي تمَّ تدوينه في القرن الثامن. لكن هذا اللبس والتعارض سوف يتبدد، عندما تأكد أن تاريخ الورق نفسه هو الذي يعود إلى ما قبل ولادة النبي، وليس الكتابة المخطوطة عليه، ويُحتمل أنه تمَّ اغتنامه أثناء حروب المسلمين ضد البيزنطيين، فاستعمل لاحقاً لكتابة القرآن عليه. ثم إن هذه المخطوطة كتبت بالخط الحجازي الأقدم من الكوفي، ويتعلق الأمر بالآيات ٩١-٩٨ من سورة مريم، والآيات الأولى من سورة طه (١-١٣). وبعد مقارنة هذه الآيات الأقدم حفظًا من غيرها تبين أنها تتطابق ومثيلاتها في النص العربي الذي يعتمده المسلمون اليوم.

ويعتقد بلاتي أن هذه المخطوطة كشفت على مختلف الحيثيات المتعلقة بتاريخ القرآن التي كانت غائبة عنَّا فيما قبل. فهي تتضمن النص العربي نفسه الذي نصادفه اليوم في كل مكان من العالم، حيث احترام ترتيب السور المعهود. ثم إن المحتوى الكتابي يحضر فيه بشكل لافت (قصة موسى، الرحمن، طوا)، وهذا يعني أنَّ هذه المخطوطة الواحدة تظهر إلى أي حد انغمس القرآن بشكل كبير في عالم الكتاب المقدس، وأن المتلقين لقراءة محمد «الشعرية» لهذه التلميحات يجدونه أمرا بديهيا.

انشقاق عقيدة التوحيد

ينفي الكاتب كون شبه الجزيرة العربية، بما في ذلك مكة، كانت في الغالب وثنية الاعتقاد، مؤكداً أنَّ المنطقة تعرضت لتأثير مسيحي مبكر سواء في الشمال أو الجنوب أو الشرق، كما أن اليمن شهد حضورا يهوديا قويا، ويحتمل أن «اليهود المسيحيين» مارسوا تأثيرًا على القرآن. وهناك من الباحثين من ينفي خضوع ظهور الإسلام بهذا التأثير الكتابي، مثل كيلوم ديو، وستيفن شخوماكر. لكن الكاتب يشدد على تعرض القرآن لتأثير الكتاب المقدس، فالقرآن نفسه يقول إنه استمرارية للرسل الكتابيين السابقين، وإن كان خطابه موجهاً باللغة العربية، بل وإن كان سياق ظهوره أيضاً يوحي بأنه يحمل رسالة جديدة لوثنيي شبه الجزيرة العربية.

ثم إنَّ مكة، رغم وثنية أهلها، لم تكن معزولة عن العالم المجاور لها الذي كانت تهيمن فيه النصرانية واليهودية. ويعزز الكاتب هذه الفرضية بمعطيات مختلفة. أولها أنه أثناء امتداد مملكة حمير انطلاقاً من اليمن نحو الشمال في القرن الرابع، كان يحصل نوع من التحول الديني البطيء من الهينوثية (الإيمان بإله واحد دون إنكار الآلهة الأخرى)، إلى هيمنة الإله الواحد على حساب الآلهة الدنيا، ثم إلى التوحيدية المجهولة، أي المنفصلة عن المؤسسة الدينية البيزنطية، الفارسية، والإثيوبية. وثانيها أنه بعدئذ، سوف يكتمل تطور الوحدانية في حمير حوالي ٣٨٠ ميلادية، نتيجة اعتماد أحد الملوك اليمنيين (يوهيمن) التوحيدية اليهودية التي امتد نفوذها إلى الشمال. وثالثها أنه منذ نهاية القرن الخامس سوف يصعد نجم النصارى في حمير، وقد عثر في منطقة نجران التابعة لها في ٢٠١٤ على مئات الصلبان في الصخور. وقد كانت هذه المملكة النصرانية موالية للإمبراطورية الإثيوبية. لكنها سرعان ما تعرضت لحركة يهودية بزعامة الأمير ذو نواس الذي تمكن من الانقضاض على مدينة نجران، ومواجهة التأثير المسيحي. وآخرها أن رد فعل ملك أكسوم النجاشي كلاب كان سريعا على الامتداد اليهودي، حيث تمكن من فتح منطقة حمير كلها، والقضاء على الأمير اليهودي ذو نواس.

وتجدر الإشارة، بالإضافة إلى ذلك، إلى محاولة أبرهة تدمير مكة. وإن كان المستشرقون النصارى يشككون في صحة قصة الفيل، فإن يوليان روبين يُثبت تلك الواقعة اعتمادا على الشعر الجاهلي الذي تضمن قصة الفيل.

محمد واعتناق الحنيفية

يرى بلاتي أنَّ الآيات الأخيرة من سورة الأعلى ذات أهمية كبيرة، لأنها تكشف عن أن ما ينقله النبي محمد، إنما هو نفسه ما تضمنته كتب الوحي السابقة التي نزلت على إبراهيم وعيسى. وهذا يعني أن محمداً ينتظم في التاريخ الكتابي الموسع. كما توجد أدلة كثيرة في حياته تثبت أنه التقى عددا من أتباع اليهودية والنصرانية. ثم إنه كما سبقت الإشارة امتدت التوحيدية اليهودية منذ القدم انطلاقا من مملكة حمير نحو واحات الشمال، حيث استقر اليهود بعد طردهم من فلسطين. لذلك، فإنه عندما نتفحص مختلف الشواهد والشهادات المتعلقة ببداية ظهور القرآن، يبدو أن الأمر يتعلق باعتناق محمد للديانة التوحيدية كما أرساها إبراهيم وموسى، وليس من الصدفة ذكرهما في سورة الأعلى. بل إن صورة الإله التي فرضها محمد تختلف جذرياً عما يعتقده أهل بلده المكيون، الذين ظلوا متمسكين بالوثنية القديمة.

من هذا المنطلق، كما يستجلي بلاتي، سوف يلاحظ القارئ إلى أي مدى كان الإسلام أقرب في بداية ظهور القرآن إلى اليهودية والنصرانية، اللتين كان يُنظر إليهما بكونهما التوحيدية القديمة والأصلية التي جاء بها إبراهيم وموسى. لكن الأمور سوف تنقلب رأساً على عقب، عندما اصطدم محمد بالرفض اليهودي الجذري في المدينة لاعتماد رسالة الله المتضمنة في كتاب القرآن العربي من جهة. وعندما اعتبر

القرآن بنوة عيسى لله أمراً غير ممكن منتصرًا لتوحيدية الإسلام المطلقة من جهة ثانية.

من الدعوة إلى التدوين

يؤكد اللاهوتي إيميليو بلاتي أن كل نسخ القرآن التي نطلع عليها اليوم مُتماثلة، مع تنويعات جد طفيفة. كل من يستمع إلى القرآن سواء في القاهرة أو أمستردام أو مانيلا، يسمع بلا شك النص نفسه، حتى ولو كان القارىء سنياً أو شيعياً. وأكثر من ذلك، فإن النص القرآني المتداول اليوم هو نفسه الذي تم جمعه من طرف الخليفة الثالث عُثمان بن عفان، بل ويتطابق مع أقدم مخطوطة قرآنية مكتوبة بالخط الحجازي القديم حسب الفحص الكربوني في جامعة برمينغهام.

ومع ذلك، فإنَّ الكاتب يخوض في قضايا أخرى قلما كانت محطّ اهتمام البحث الاستشراقي التقليدي. لكن أولا ما يبعث على الاستغراب هو أنه يشير إلى أن كتاب المصاحف لابن أبي داود السيجيستاني يتحدث عن أخطاء نحوية وقعت في القرآن، وأنها ما زالت موجودة في النص القرآني الحالي. ويستدل بحديث تقول فيه عائشة رضي الله عنها أن هذه الأخطاء ارتكبها النسّاخ أثناء كتابة النص الأصلي للقرآن. وقد كتبت المصاحف المستعملة اليوم على أساس المصادر الإسلامية التي ترجع إلى النص الأصلي نفسه الذي تركت فيه الاختلافات الطفيفة للقراءات. بل حتى الأخطاء النحوية تم تمريرها من طرف النساخ المتأخرين!

ولعل أهم إشكالية يثيرها بلاتي بخصوص جمع القرآن في عهد الخليفة عثمان تتعلق بالمواد التي استند إليها هذا الجمع في ما يصطلح عليه المصحف العثماني. ماذا عن مصير المواد التي سجل فيها الصحابة ما سمعوه مباشرة من النبي محمد؟ وهل بقي منها شيء إلى حد اليوم؟

قرآن آخر

يثير الكاتب في هذا الفصل ما يعرف بمخطوطات مسجد صنعاء التي تم اكتشافها أثناء إعادة بناء المسجد عام ١٩٧٢، وهي تتكون من حوالي اثنتي عشرة مخطوطة كُتب أغلبها بالخط الحجازي. ومن خلال دراسة النص الأصلي المعقد للمخطوطة المرقمة بـ DAM ٠١-٢٧,١ يظهر أنها تختلف في بعض الأمور عن المصحف العثماني المعروف، وأن النص الأصلي الذي يؤرخ بمنتصف القرن السابع لا علاقة له بالنص العثماني. بالإضافة إلى ذلك، يبدو أن ترتيب السور لا يتطابق مع الترتيب المعتمد في النص التقليدي للقرآن. واللافت للنظر أيضاً أنه عند آخر بعض السور تثبت عبارة تشير إلى أنها نهاية السورة. وقد ذكر هذه الملاحظة ابن أبي داود السجيستاني في «كتاب المصاحف» السابق ذكره، الذي يمكن اعتباره أهم مصدر عربي يؤسس عليه بلاتي مقاربته للقرآن.

وبعد تحليل المخطوطات القديمة ومنها مخطوطة مسجد صنعاء يخلص فرانسوا ديروشي إلى أنه يُحتمل أن جمع السور تم استكماله قبل وفاة النبي محمد في ٦٣٢، لكن ترتيب السور بقي غير مكتمل. ويعتقد بلاتي أن من شأن هذه الرؤية أن تقوّض الأطروحة المخالفة التي ترى أن جمع القرآن امتد إلى القرن الثامن وأواخر حكم الخليفة عبد الملك بن مروان

(٦٨٥-٧٠٥).

ومع ذلك، فإنه يتشبث بكون النص الأصلي للقرآن خضع للتشذيب والتعديل، لأن القارئ يشعر عندما يقرأ بعض السور أنها تتضمن مطبّات تقطع وتخترق محتوى السورة. لذلك، هناك انطباع بأن نص السور غير محكم ومتماسك مثل القصيدة الشعرية. وقد ظهر جليا أن النص القرآني خضع للتعديل نتيجة إضافة الآيات المدنية إلى السور المكية وتنويع استعمال العبارات القرآنية بشكل متبادل. ويُعضّد الكاتب وجهة نظره هذه برأي ميشيل كويبرس الذي يفسر إعادة تركيب السور بالميل إلى تكييفها مع «البلاغة السامية»، بكونها بلاغة تميز الشعر السامي وتمنحه بنية معينة. ويجزم بلاتي بأن النبي محمد، حسب ما تثبته المصادر الإسلامية، أنه قام أثناء المرحلة النبوية بإعادة مراجعة النص القرآني وتعديله بتعاون مع كتاب القرآن وصحابة آخرين. وهذا يدل على أن قصة جمع القرآن لم تكتمل بعد. إن الأمر يقتضي القيام بدراسة وتحرير لاسيما لمخطوطة مسجد صنعاء المشار إليها آنفا.

إن ما يسترعي النظر في هذا الكتاب الذي سعى من خلاله اللاهوتي إيميليو بلاتي إلى إعادة اكتشاف القرآن، أنه يطرح فرضيتين جوهريتين، بالإضافة إلى فرضيات جانبية، يحاول إثباتهما عبر مختلف الحجج التاريخية والعقلية، وهما: التأثير الكتابي على النبي وتعديل النص القرآني.

فيما يتعلق بالفرضية الأولى، يجزم الكاتب في إحدى خلاصاته بأن القرآن الإسلامي ذو طابع يهودي- مسيحي. وليس من الخطأ إذن أن يوصف الإسلام بأنه دين «كتابي» بعد اليهودية والنصرانية. وإن كانت هناك اختلافات عميقة بين هذه الأديان الثلاثة في العقائد والعبادات. إنه يستحيل استيعاب النصوص الأساسية للإسلام وفهمها دون معرفة الكتاب المقدس. وبعد كل ذلك، سوف يتأكد بجلاء تام أن الإسلام ذو خلفية كتابية تتجذر في الثقافة اليهودية والمسيحية، التي كانت مهيمنة أثناء القرون الأخيرة قبل ظهور الإسلام.

وبالجزم نفسه، يشدد الكاتب على أن النص العربي الرسمي للقرآن الذي يوجد الآن في كل مكان، إنما هو ثمرة سلسلة من التعديلات والتصويبات. ولا يتعلق الأمر بتشكيل القرآن فقط، بل بتدخل جذري للخليفة الثالث عثمان بن عفان في النص الأصلي الذي عدله ليُعتمد النسخة الموحدة فيما بعد. بل ويَعتبر أن سور القرآن خضعت لتعديل عندما كان النبي حيا، حيث قام بتصويب الأجزاء التي كان قد سبق له أن أعلن عنها، ربما مع بعض تلامذته لاحقا. وقد كانت السور مستقلة عن بعضها البعض دون أي ترتيب. وتتمثل تعديلات النبي مثلا في إلغاء «الآيات الشيطانية» المعروفة بقصة الغرانيق، وفي الاستعمال المتبادل لبعض العبارات القرآنية دون أي مشكلة مثل: «غفور رحيم» و«عزيز حكيم».

وتجدر الإشارة أيضاً إلى اختلاف القراءات التي أولى لها الكاتب أهمية كبيرة في مقاربته للقرآن الكريم، فاستجلى أن تعدد القراءات مسّ محتوى السور جراء النقص في الكتابة المعتمدة، بالإضافة إلى بعض الجوانب البنيوية كالنطق والترتيب.

الخلاصة مما سبق، إن «إعادة اكتشاف القرآن» التي عقد لها اللاهوتي إيميليو بلاتي هذا الكتاب المثير لا تخرج عن دائرة الدراسات الاستشراقية سواء التقليدية أو المعاصرة التي اشتغلت بالقرآن الكريم، لذلك لا يمكن استيعابها إلا ضمن منطلقات هذا الفكر ومحدداته المنهجية والابستيمولوجية، التي تدرس القرآن من خارج سياقه التاريخي واللاهوتي واللساني دون اكتراث بالمسلمات الداخلية التي تضبط التعامل معه، فهي لا تتعاطى مع القرآن بكونه نصا موحى من الله، كما تُجمع على ذلك الأمة المسلمة؛ أفرادا وجماعات وعلماء، بل تنظر إليه بكونه كتابا عاديا من تأليف النبي محمد وتعديل الصحابة إلى أن أصبح على ما هو عليه اليوم. ثم يغيب الجانب الإعجازي تماما في دراسة النص القرآني، فيُفسّر كل اختلاف لغوي فيه على أنه خطأ نحوي أو لغوي. وأكثر من ذلك كله، ليس القرآن إلا إعادة إنتاج إنساني بلسان عربي لما تضمنته الكتب السماوية السابقة اليهودية والنصرانية. وهذا ما انعكس بشكل جلي في مقاربة اللاهوتي إيميليو بلاتي النقدية التاريخية التي، في الحقيقة، لم تعد اكتشاق القرآن، بقدر ما حاولت تأكيد جملة من الخلاصات الاستشراقية القديمة والحديثة.

· الكتاب: إعادة اكتشاف القرآن

· المؤلف: إيميليو بلاتي

· الناشر: أفيربود، بلجيكا

· تاريخ النشر: 2021، باللغة الهولندية

· عدد الصفحات: 112

*** أكاديمي في جامعة لوفان في بلجيكا**

النزوح والتهجير في المتاحف الأوروبية
فنسنت ريغنت

زهير سوكاح *

بخلاف التصور السائد حوله في العالم العربي، لا يُحيلنا المتحف إلى الماضي حصرًا، بل هو توثيق مستمر للماضي لا يمكن أن يتم بمعزل عن الزمن الحاضر الذي يتشكّل فيه، ذلك أن الأرشفة هي عملية مُتجدّدة ودينامية أكثر من كونها مجرد تخزين جامد. بهذا المعنى فإن المتحف ليس هو الماضي بل هو انعكاس لتصوُّراتنا الجمعية الراهنة عن الزمن الماضي وهذه التصورات بالذات، هي التي تَعْبُر بنا من زمن الحاضر إلى المستقبل. «المتحف» بوصفه أداة لبناء المستقبل هو تحديدًا القضية المركزية لكتاب «النزوح والتهجير في المتاحف الأوروبية»، الذي يتناول بالدراسة والتحليل النقاشات الراهنة ضمن ثقافة التذكر الأوروبية حول حدث نزوح وتهجير حوالي ١٤ مليون إنسان من الأقليات الألمانية من دول أوروبا الوسطى والشرقية عقب الحرب العالمية الثانية.

يُقدّم مؤلف الكتاب، فنسنت ريغنت، مقارنة شاملة للتمثلات الراهنة حول هذا الحدث الذاكري والتاريخي عبر دراسة مستفيضة لسبعة مشاريع مُتْحَفية معاصرة في كل من مدن برلين وميونخ وغورليتس بألمانيا، وغدانسك وكاتوفيتسه ببولندا، إضافة إلى مدينة أوستي التشيكية والعاصمة البلجيكية بروكسل. وعبر هذه المقاربة المتعددة، التي يتعاطى فيها المؤلف مع كل وجهات النظر الألمانية والبولندية والتشيكية على قدم المساواة، يحاول فتح آفاق جديدة لفهم الخطاب الراهن حول «النزوح والتهجير»، الذي تتنازعه تأويلات متصارعة؛ فعندما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها في أوروبا، بدأت مرحلة مُعقدة من كتابة وتوثيق التاريخ الأوروبي لاتزال مستمرة إلى اليوم عن نزوح وتهجير الأقلية الألمانية من شرق أوروبا الوسطى. ولايزال بالإمكان الاطلاع على هذه الأزمة التاريخية والسياسية بشكل ملموس من خلال معروضات عدة متاحف أوروبية متعددة تشي أيضًا بتنوع التمثلات الجمعية، التي حاول هذا الكتاب الإحاطة بها.

يتألف الكتاب من تمهيد قصير ومُقدمة مستفيضة إلى جانب ستة فصول: يتخذ الفصل الأول من الكتاب طابعا نظريا، ويتناول بالتحليل والمناقشة جُملة من المفاهيم الرئيسية والمصطلحات المركزية القادمة من حقل دراسات الذاكرة الجمعية، التي ولجت ميدان البحث التاريخي الجديد، من مثل: «الذاكرة الجمعية» و«ثقافة التذكر» و«سياسة التذكر» أو ما يُعرف أيضا بـ «السياسة التاريخية»، إضافة إلى «التأريخ العابر للقوميات» في مقابل «التأريخ القومي». هذا إلى جانب عرض موجز حول الأدوات المنهجية، التي يستعين بها المؤلف في بقية الفصول الخمسة، وأهمها منهجية «تحليل الخطاب» ضمن الكتابة التاريخية في أوروبا، وأيضا ما يعرف بـ «التحليل المُتْحَفي» القادم من حقل «دراسات المتحف».

في الفصل الأول حول علاقة المُتحف بجغرافيته المحلية وإطاره المجتمعي والقومي، يُناقش المؤلف الارتباط الوثيق بين مفهومي «ثقافة التذكر» و«السياسة التاريخية». ويُعتبر ثقافة التذكر عموما مصطلحًا شكليًا عاما يُعبّر عن جميع الأشكال الممكنة من التذكر الواعي للأحداث والشخصيات والتحولات التاريخية، كما أن ثقافة التذكر الوطنية المُنحصرة في بلد معين هي تعبير في الوقت ذاته عن التصور الرسمي لتاريخ البلد المعني، الذي يتم التأسيس له داخليا وخارجيا عبر السياسة التاريخية. كما يتحدث المؤلف هنا أيضا عمّا أسماه بـ «سوق الذكريات الجمعية»، التي تختلف وتتخالف فيما بينها من ثقافة تذكر إلى أخرى ومن بلد إلى الآخر، والتي لا يمكنُنا فهمها إلا من خلال سياق أوسع وهو ثقافة التذكر العابرة للقوميات. وهذه المنهجية تُساعد على فحص ادعاءات استملاك التذكر «الصحيح» والحقيقي في مقابل التذكر المُزيّف أو غير الحقيقي، التي تنسبه كل جهة ذاكرية إلى الجهة المقابلة لها، وفي هذه الحالة الجهة الألمانية في مقابل الجهتين البولندية والتشيكية. وكل هذا يحيل إلى صراع السرديات التاريخية حول حدث نزوح وتهجير الأقليات الألمانية، حيث تتباين ذكريات الضحايا بالكلية عن الذكريات المُشكَّلة حول الحدث نفسه في بولندا أو التشيك.

وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى الانشغال في الفصل الثاني من هذا الكتاب بقضية التهجير القسري للألمان بوصفه حدثا ذاكريا وتاريخيا؛ حيث يعرض بدايةً للوجود التاريخي الألماني في مناطق عدة من شرق أوروبا الوسطى إلى حدود بروز النازية في ألمانيا، ثم يُلقي نظرةً على مراحل وحيثيات التهجير القسري للأقليات الألمانية من المنطقة قُبيل وأثناء وبعد الحرب العالمية الثانية، كما يقدم نُبذةً عن الجهود المؤسسية الألمانية لاستقبال وإدماج اللاجئين الألمان المُهَجّرين من بولندا والتشيك نحو ألمانيا، الوطن الأصلي لأجدادهم. ويرى المؤلف أن بداية أزمة الأقليات الألمانية، التي يرجع وجودها في المنطقة إلى العصور الوسطى، لم تبدأ مع مساندة البعض منها للسياسة التوسعية للنظام النازي بقيادة أدولف هتلر، بل ترجع عموما إلى مرحلة تبلور فكرة الدولة القومية وما يرتبط بها من صورة جمعية قومية عن الذات والآخر، وذلك في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تحديدا. ويذهب المؤلف إلى أن سياسة الاستيعاب العدوانية كانت تُمارس فعليا في أوروبا القرن التاسع عشر، وكان يتم أيضا اللجوء إلى سياسة التهجير القسري، والتي اتخذت أحيانا شكل الإبادة الجماعية، وهذا كله بهدف خلق تجانس إثني للدول القومية الناشئة آنذاك، واستمر الحال إلى غاية نهاية الحرب العالمية الأولى. أما في فترة ما بين الحربين، فقد أسهم الإرهاب النازي بالمنطقة في الإسراع نحو إنهاء الوجود الملفت للأقليات الألمانية في كل من بولندا وتشيكوسلوفاكيا (وجزئيا المجر)، التي سعت إلى إعادة توطينهم بدعم من دول التحالف المُنتصرة بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، وهو ما أسهم في الوقت ذاته بالمزيد من التجانس العرقي ضمن هذه الدول القومية على حساب الأقلية الألمانية ووجودها الثقافي منذ القرون الوسطى. ومع نهاية الحرب، انطلقت عمليات واسعة من التهجير القسري وكذلك المغادرة الطوعية في وقت لاحق إضافة إلى لمّ شمل الأسر التي مزّقتها عمليات الترحيل، غير أن المؤلف يؤكد في الوقت ذاته على أن التهجير القسري قد بدأ على نطاق واسع في أوروبا تحت قيادة ألمانيا والاتحاد السوفيتي في وقت مبكر من عام ١٩٣٨/٣٩، وهو ما غيّر وجه القارة العجوز في السنوات التالية.

في الفصل الثالث يتطرق المؤلف إلى الخطابات السائدة في فترة الحرب الباردة حول حدث التهجير القسري في كل من جمهورية ألمانيا الديمقراطية (ألمانيا الشرقية) وجمهورية ألمانيا الاتحادية (ألمانيا الغربية) إضافة إلى الخطابات السائدة حول الحدث التاريخي ذاته في كل من بولندا وتشيكوسلوفاكيا سابقا: في السردية البولندية الرسمية يتم ربط التهجير القسري للألمان من البلد بالجرائم النازية ضد البلد وسُكّانه، ممّا سمح. حسب المؤلف. بتخفيف حدة الإحساس بالذنب الجمعي في البلد اتجاه المُهجَّرين الألمان. أيضا في تشيكوسلوفاكيا (سابقا) وتحديدا جمهورية التشيك (حاليا)، فقد كانت السردية الرسمية تتركز حول حدث تهجير الأقلية الألمانية بوصفه إجراءً صارما لكن مُبرّرًا في الوقت ذاته، حيث تتم محاولة شرعنته بما سُمّي بـ«حتمية التهجير» بسبب ما قيل على أنه «خيانة الوطن» من طرف الأقلية الألمانية عن طريق وقوفها إلى جانب العدو بل والمحتل النازي، وعموما فقد تم تبرير عمليات التهجير والنزوح في بولندا وتشيكوسلوفاكيا على أنها نتيجة لقرارات الحلفاء بعد الحرب وللجرائم النازية. أما على المستوى الشعبي فقد قُوبل طرد الألمان في بولندا كما في جمهورية التشيك، بموافقة واسعة من السكان، الذين اعتبروا الإجراء رد فعل مناسب بل وضروري ضد الاحتلال الألماني والجرائم النازية، وقد دعّمت البروباغندا الرسمية في كلا البلدين هذه النظرة الشعبية بتصويرها لعمليات الطرد من كونها كانت عمليات إخلاء مدنية وإنسانية

تتسم بالمعقولية والعدالة. لكن مع ذلك يؤكد المؤلف وجود فرق بين البلدين في التعامل السياسي مع ملف النزوح والتهجير ويتجلى بالأساس في خضوع بولندا بخلاف تشيكوسلوفاكيا منذ البداية إلى إملاءات الاتحاد السوفياتي.

على الصعيد الألماني يُلاحظ المؤلف وجود فروقات واضحة في الخطابات الرسمية حول هذا الحدث الذاكري والتاريخي في كل من جمهورية ألمانيا الديمقراطية وجمهورية ألمانيا الاتحادية بسبب الاختلاف بل والصراع الأيديولوجي السائد آنذاك بين الألمانيتين، غير أنه يؤكد أن المصائر الشخصية الصعبة للنازحين كأفراد لم تلقَ في البداية اهتماما رسميا مكثفا بنفس القدر الذي أولته كلتا الدولتين للقضية في بعدها السياسي والخارجي ولاسيما في ألمانيا الديمقراطية، التي كانت تنظر إلى بولندا وتشيكوسلوفاكيا بوصفهما دولتين صديقتين من المعسكر الشرقي، حيث سعت ألمانيا الشرقية، التي كان يتواجد فيها ٢٠ في المئة من النازحين الألمان، إلى تغييب هذه القضية حتى على الصعيد الإعلامي، وبخلاف هذا ظلت هذه القضية موضوعًا حاضرًا على الساحة الإعلامية. ويرى المؤلف أن التحول الذي حصل سنة ١٩٨٩ بتفكك الاتحاد السوفياتي وتوحيد ألمانيا لم يؤثر بالشكل المأمول في هذه القضية المعقّدة، حيث لا تزال الجمعيات المدنية التي تضم ضحايا التهجير تشعر بأنها مُهمّشة حتى في زمن الاتحاد الأوروبي.

في الفصل الرابع يقتفي المؤلف أثر تطور هذه الخطابات بعد سنة ١٩٨٩، وهي سنة تحول عميق في تاريخ السياسية العالمية، على إثر انهيار الاتحاد السوفياتي وسقوط جدار برلين، ويُركّز المؤلف هنا على دراسة الخطابات الجديدة حول حدث التهجير والنزوح في كل من ألمانيا الاتحادية وبولندا وجمهورية التشيك ويقارن بينها ليخلص إلى تشكل مساحة خطاب مشتركة في هذه الدول مضيفا أن هذا الخطاب المُشتَرك قد بلغ ذروته في أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. ويرى المؤلف أنه عند مقارنة النقاشات حول النزوح والتهجير في كل من بولندا وجمهورية التشيك، يتبدى بوضوح قرب هذه القضية من الصورة الذاتية الوطنية، ومثل ألمانيا لا تخلو هذه الصورة الذاتية من إحساس «الضحية» اتجاه الجرائم النازية. أيضا يُلاحظ المؤلف أنه بينما يُنظر حاليا إلى حدث التهجير في جمهورية التشيك بنظرة أخلاقية، نجد أنه يتم في بولندا التركيز على ربط الموضوع ببعده الدولي، حيث تُعنى به دول أخرى من مثل الاتحاد السوفياتي سابقا، وسلوفاكيا والمجر أيضا. غير أن المؤلف يُشدّد هنا على أنه من الصعب الحديث عن خطاب «أوروبي» مُوحد حول هذا الحدث، رغم توسع هذا الاتحاد وضمه لدول جديدة من أوروبا الشرقية. أيضا لم يتمكن هذا الحدث من فرض نفسه في الذاكرة الأوروبية الجمعية مثل قضايا مركزية أخرى، صارت تُشكل ثقافة التذكر الأوروبية المعاصرة، مثل تذكر الحقبة الشيوعية والمحرقة النازية وجرائم الحربين العالميتين. ويخلُص المؤلف في نهاية هذا الفصل إلى وجود تمثلات انتقائية محددة لتلك الأحداث التاريخية، حيث يتم في هذه البلدان الثلاثة انتقاء واعتماد أحداث تاريخية بعينها دون أخرى بهدف تغذية الشعور الجمعي بالمظلومية الذاتية، وبالتالي إلقاء المسؤولية التاريخية على الطرف المقابل

في غياب حقيقي لمعالجة ذاكرية نقدية وعلمية، كما لا يخلو الأمر من توظيف إعلامي ذي طابع دعائي واضح لتدعيم الموقف الرسمي في هذه البلدان، حيث لا يمكن للإعلام هنا لعب دور كبير في المُصالحة التاريخية القائمة على المُعالجة الذاكرية، مما يجعل هذه القضية معلقة وبالغة التعقيد إلى يومنا هذا.

في الفصلين الخامس والسادس يتطرق المؤلف بداية إلى المتاحف المحلية، التي اهتمت بتوثيق وأرشفة التهجير القسري للأقليات الألمانية، وهي تحديدا خمسة متاحف، ويتعلق الأمر بمتحف سيليزيا بمدينة غورليتس، ومتحف السوديت الألمان بميونخ في ألمانيا ومتحف سيليزيا وكاتوفيتسه ببولندا وأخيرا متحف بوهيميا في مدينة أوستي التشيكية، أما في الفصل السادس والأخير فقد قدّم فيه المؤلف تحليلا علميا وافيا لبعض المشاريع والأعمال الأرشيفية التي تعرضها بعض المتاحف الأوروبية في السنوات الأخيرة، ويتعلق الأمر بالمعرض الدائم الذي أسّسته منظمة «النزوح والتهجير والمُصالحة» في ألمانيا، والمعرض الدائم لمتحف الحرب العالمية الثانية بمدينة غدانسك البولندية إضافة إلى بيت التاريخ الأوروبي في بروكسل. وهنا يرى المؤلف أن مُتحفي غورليتس وكاتوفيتسه لم يوُفّقا كثيرا في مواجهة التحدي المُتمثل في تقديم عدّة مواضيع متضاربة فيما بينها من الناحية التاريخية والسياسية بشكل موضوعي بدرجة معقولة. وفي هذا الصدد يرى المؤلف أن المحتوى الذي يعرضه متحف كاتوفيتسه البولندي هو بالأساس مُوجّه للزّوار الألمان أكثر منه للزّوار المحليين. غير أن المؤلف يؤكد أن كلا من المُتحفين يقدم سردية ذاتية وحيدة لحدث التهجير بدلا من سرديات متنوعة عنه، حيث ينطلق كلا المُتحفين في تقديمهما للحدث التاريخي من البدايات الأولى للوجود الألماني في منطقة سيليزيا أي منذ العصور الوسطى، في حين يتم التركيز على حدث التهجير بشكل لافت في المتحف الألماني أكثر منه في المتحف البولندي، أيضًا نجد فيه عرضا أكثر تفصيلا عن الحياة القاسية للمُهَجّرين الألمان. لهذا يقترح المؤلف ضرورة التعاون بين المتحفين البولندي والألماني في تصميم وعرض مشاريع مُستقبلية لتجاوز النواقص التي سجّلها في تحليله لمحتوى وأداء المُتحفين، ويشير هنا كمثال حيّ على ذلك إلى التعاون القائم فعلياً بين مُتحفي ميونخ الألماني ومتحف أوسي التشيكي منذ سنة ٢٠٠٦، حيث يقدمان عبر تيمة «العيش المشترك في منطقة بوهيميا» تأريخا مشتركا عابرا للحدود لحدث التهجير من زاويا عدة، تُتيح للزُّوار على اختلاف جنسياتهم الوقوف على قراءات متعددة حول حدث واحد.

أيضا يقارن المؤلف بين المتاحف الأوروبية الثلاثة، التي تأسست مع بداية الألفية الجديدة في كل من برلين ودانسيغ وبروكسيل، والتي تحاول من جهتها تقديم سردية أوروبية مشتركة (وليس محلية ذات طابع قومي ضيق) عن حدث التهجير واللجوء الألماني وما ارتبط به من أحداث تاريخية غيرّت خريطة أوروبا مثل الحربين العالمية الأولى والثانية. كما لم تسعَ هذه المتاحف الإقليمية. وفق تحليلات واستنتاجات المؤلف. إلى «فرض» سردية واحدة ووحيدة على زوارها من خلال عروضها الدائمة عبر مراعاة معظم التناقضات، التي يحيل إليها هذا الحدث تاريخيا وذاكريا. وهنا يلاحظ المؤلف حضور الاهتمام الأنثروبولوجي لتيمات النزوح والهجرة والاندماج في هذه المتاحف الثلاثة. وبهذا البعد لا تكتفي هذه المتاحف بعرض هذه القضية المتداخلة تاريخيا من زاوية نظر أوروبية بل تسعى أيضا إلى تقديمها في سياقها الدولي بعيدا عن الضيق القومي في تناولها والاستغلال اليميني لها ضمن الدول المعنية بها، وذلك في اتجاه تأسيس سردية عابرة للقوميات تنم عن فهم عميق وشامل لتيمة النزوح والتهجير وهو فهم، كما يؤكد المؤلف في خاتمة كتابه، لا مناص منه لمعالجة الذاكرات القومية المتصارعة في استملاكها الرمزي للحدث بتفاصيله لكن وفق تمثلاتها الانتقائية.

وبعد صدور هذا الكتاب بسنة أُعلن في ألمانيا مؤخرًا عن افتتاح متحف جديد في برلين ليس فقط عن حدث تهجير هذه الأقليات الألمانية، بل أيضاً عن بقية أحداث التهجير القسري والإبادة من مختلف مناطق العالم مثل ما يُعرف إعلاميا بـ «إبادة الأرمن» والحرب والتهجير في سوريا وذلك كله ضمن سردية إنسانية أكثر شمولية وتنوعا تعكس أهمية العمل المتحفي في حاضر ومستقبل المجتمعات البشرية.

- الكتاب: النزوح والتهجير في المتاحف الأوروبية. مقارنة للمنظورات الألمانية والبولندية والتشيكية
- المؤلف: فِنسِنت ريغنت
- دار النشر: ترانسكريبت
- سنة النشر: 2020
- لغة النشر: اللغة الألمانية

* باحث ومُحاضر مغربي في جامعة دوسلدورف بألمانيا

المسلمون في الشرق الأقصى: التاريخ والحداثة

عدة مؤلفين

فيكتوريا زاريتوفسكايا *

نظرًا لبعده عن المركز الرئيسي للبلاد، يعيش الشرق الأقصى الروسي الذي يحتل مساحة كبيرة من الاتحاد الروسي الحديث حالة كساد اقتصادي. وتشكل الصعوبات في الاتصالات والبنية التحتية للنقل والمرافق غير المطورة مشاكل أساسية للمنطقة. ولأجل تنمية المنطقة عكفت الحكومة على إطلاق برامج اجتماعية مُختلفة لتحفيز تدفق السكان إليها وتنشيط المشاريع الضرورية والواعدة. وبالنسبة لروسيا لا يزال الشرق الأقصى مهمًا من الناحية الإستراتيجية نظرًا لموارده الطبيعية الكبيرة وموقعه الجغرافي المهم إلى جانب أسباب أخرى مُتعددة، لذلك فإنَّ استيطانه وتطويره مستمر منذ وقت طويل على الرغم من كل الصعوبات.

لعب ممثلو مختلف الشعوب، بمن فيهم أولئك الذين يعتنقون الإسلام في روسيا، دورًا كبيرًا في محاولة إقامة مُجتمع متجانس في المنطقة. فتحول الشرق الأقصى إلى مكان التقاء لأربع حضارات - الروسية والصينية والسكان الأصليين وفيما بعد الحضارة الإسلامية. هنا توجد المساجد والبنية التحتية الإسلامية منذ أكثر من مئة عام، تقف شاهدة على وجود المسلمين ومساهمتهم في تأصيل الأوجه الثقافية والاقتصادية المتعددة لهذه المنطقة.

إن الكتاب الذي قام بتأليفه عدد من الباحثين حازوا منحة من الصندوق الرئاسي، مكرس للماضي التاريخي والوضع الحالي للمجتمع المسلم في محافظة الشرق الأقصى الفيدرالية. للمرة الأولى يتم التصدي لتلخيص معلومات ثرية تتطرق إلى تطور الإسلام في هذه الأراضي الشاسعة (ربع مساحة الدولة الروسية) وذلك بناءً على مجموعة واسعة من المصادر التي يمكن عبرها تحليل مساهمة الشعوب المسلمة في تنمية الشرق الأقصى الروسي.

إلى جانب تقديمه تحليلا للتعداد السكاني من عام ١٨٩٧ وحتى عام ٢٠١٠ واحتوائه إحصائيات اجتماعية أخرى، يطلعنا البحث كذلك على أكثر من ١٥٠ مقابلة شخصية ووثائق نادرة من المحفوظات الإقليمية وتراث العائلات المسلمة وأبحاث المؤرخين وعلماء الاجتماع وعلماء الأعراق وغيرهم من المتخصصين الذين يدركون الحاجة إلى تقييم حالة المجتمع المسلم في الشرق الأقصى الروسي وإلى مشاركة المسلمين في هذه المنطقة الكبرى في عملية التفاعل بين الأديان. هناك إجماع بين الباحثين على ضرورة الحفاظ على التراث الثقافي للشعوب الإسلامية في الشرق الأقصى وتطوير التعليم الديني في المنطقة. لهذا، يعيد الكتاب المسار التاريخي الذي قطعه المسلمون من لحظة ظهورهم في الشرق الأقصى إلى إحياء النشاط الديني لمجتمعاتهم في فترة ما بعد الاتحاد السوفيتي.

يتكون الكتاب من ثلاثة فصول تتناول العصر الإمبراطوري والعصر السوفيتي والفترة الحديثة. ويؤكد المؤلفون، الذين يحاولون التأريخ لبداية ظهور المسلمين في المنطقة أنه لم يعثر حتى الآن على مُعظم آثار المسلمين في أراضي شرق سيبيريا والشرق الأقصى لروسيا إلا أن عمليات البحث ما زالت جارية. ما تم اكتشافه بالفعل هو عبارة عن قطع أثرية وجدت عند ضفاف نهر خيمتشيك في جمهورية تيوا. ومن الكشوفات أيضاً مقبرة سعدك تريك، وفيها عثر عام ١٩٩١ على قبر الإمام كيراك عمر بن محمد بن علي البلخي، وكان مدفونا خلف قبور عدد من الأولياء، وعلى شاهد القبر كتابة بالفارسية مؤرخة في جمادى الآخرة عام ٥٩٠ هـ.

يركز الكتاب على المسائل الاجتماعية مثل مستوى الأمية بين المسلمين ونسبة الرجال ونسبة الفلاحين بينهم. أما التكوين العرقي لمسلمي الشرق الأقصى فهو اليوم متنوع علماً بأن أول من استقر في شرق سيبيريا والشرق الأقصى من المسلمين هم من تتار كازان، الذين شاركوا بنشاط في التجارة المحلية وتجارة القوافل. إن ظهور التتار وراء نهر ينيسي، والذي كان لفترة تاريخية طويلة جدا أمرا طبيعيا لتوطين أتباع الدين الإسلامي، أمر معروف منذ القرن السابع عشر، وذلك عندما أسس التتار مع الروس الخط الشمالي للحصون فأصبح التتار جزءًا عضويًا من السكان المحليين. في الفترة نفسها تقريبا جاءت أول قافلة تجارية من بخارى عام ١٦٧١، وعلى إثرها أمر الحاكم المحلي بإنشاء ساحة تجارية منفصلة لهم، والقصد كما هو واضح تمكين المسلمين من أداء صلواتهم جماعة.

لم يقتصر المؤلفون على الإحصائيات والأرشيف الرسمي فاستشهدوا بالذكريات المتبقية لأوائل المستوطنين المسلمين في الشرق الأقصى. هنا المواطن رستم شغولين يروي قصة هجرته قائلاً: شددنا الرحال أنا ووالديَّ زوجتي وأطفالنا الخمسة. كانوا في قريتنا يقولون باستمرار إن الأماكن هناك غنية بالفراء والذهب وإن كل من سافر أصبح غنيًا (...) قطعنا الطريق لأكثر من عام وكنا نتوقف للراحة في قرى مختلفة. لقد كان سهلا علينا أن نلاحظ أنه كلما ابتعدنا عن موطننا، كانت القرى على طول الطريق أكثر فقرًا. في بعض الأحيان تتسلل هذه الفكرة إلى عقلي: أليس عبثًا ذهابنا إلى هناك؟ لكن التراجع كان مستحيلاً فواصلنا المسير».

نظرًا لدراية حكام روسيا بآفاق الشرق الأقصى الاقتصادية، فقد اتخذوا أكثر من مرة عبر تاريخهم مختلف التدابير لتحفيز التوطين في تلك الأراضي، ناهيك عن حقيقة أن هذه المساحة النائية والخالية من مظاهر التحضر أصبحت مكانًا للنفي القسري الذي استهدف النشطاء السياسيين والمجرمين من مختلف الأديان والجنسيات. وبعد بناء خط السكك الحديدية زاد عدد المهاجرين بشكل ملحوظ، وهو خط عظيم شيد في بداية القرن العشرين وربط غرب البلاد الشاسعة بشرقها. ومثل جميع مسلمي الإمبراطورية الروسية الذين غادروا أراضيهم، سواء طواعية أو قسرا، فقد سعوا للاستقرار وإنشاء مجتمعهم الإسلامي بمؤسساته وبنيته التحتية: قاعة للصلاة أو مسجد، إذا أمكن، إنشاء المدارس وغيرها من مظاهر الحياة وفقًا لقوانين الإسلام. وكما تفيد المصادر التاريخية فإنَّ شبكة المجتمعات الإسلامية ببنيتها المنظمة لم

تتشكل في الشرق الأقصى إلا بحلول القرن العشرين. يركز الباحثون على الأحداث التاريخية التي شكلت نقاط تحول في تاريخ الجاليات المسلمة ولعبت دورا في حياتهم في المنطقة. وهكذا فقد شكل وصول الأسرى المسلمين من جبهات الحرب العالمية الأولى، وخاصة الأتراك منهم، حدثًا مهمًا في حياة المجتمع الإسلامي. وبهذه المناسبة ورد في الكتاب خبر صدر في جريدة كازان في ذلك الوقت: «في الرابع عشر من يناير تم نقل رتلين كبيرين من الأسرى يضمان عربا ونمساويين وألمان عبر مدينة يكاترينبورغ». وعند تناولهم هذه الأحداث يؤكد الباحثون على الموقف الإنساني للسكان المحليين تجاه السجناء: «حاول سكان تشيتا إيواء وإطعام السجناء. وعلى الرغم من أن هؤلاء كانوا يعيشون في غرف ضيقة، فقد تم تزويدهم بالطعام اللائق، والأهم من ذلك أنهم تلقوا معاملة حسنة من السكان. لم يؤثر التفكير العسكري على أهالي البلدة ولم يجبرهم على ارتكاب أعمال غير لائقة». وقد كان من بين الأسرى قائد الفيلق التاسع للجيش العثماني إسخان باشا رضوان، الذي تم أسره مع الآلاف من جنوده نتيجة لعملية سراكاميش في ديسمبر ١٩١٤ - يناير ١٩١٥ التي انتصر فيها الجيش الروسي. وحسب متابعة الصحف الروسية التي تعاطفت مع الأسرى يرد الآتي: «إن مشهد الجنود الأتراك لهو مشهد حزين للغاية. وجوه نحيلة مرهقة وخِرَق متسخة بدلاً من الملابس، كل شخص تقريبًا يحمل تعابير من اللا مبالاة. ومن بين هؤلاء تبرز شخصية إسخان باشا المليئة بالكرامة. وكان أول انطباع يشيعه هذا الجنرال التركي يشي بالذكاء الشديد الذي يتمتع بـه»(١٠٦-١٠٧). أما مصير هؤلاء الأسرى فسيتقرر في وقت لاحق خلال سنوات الحرب الأهلية. فبأمر من القائد سيميونوف، قائد الحركة البيضاء المناهضة للبلاشفة، تم إعفاؤهم من كل الأعمال الشاقة، ثم أطلق سراحهم من بعد، فمن تمكن منهم من العودة إلى وطنه، عاد محتفظا بامتنان لممثلي الجالية المسلمة في الشرق الأقصى.

لم يتجاهل مؤلفو الكتاب في بحثهم عن الإسلام في روسيا جزيرة سخالين التي احتلت في نهاية القرن التاسع عشر موقعا خاصا من حيث نسبة عدد المسلمين فيها. كان الرقم أعلى بست مرات مما هو عليه في بقية البلاد. وكان معظم مسلمي الجزيرة من المدانين بالقضايا، وقد استعاد مؤلفو الكتاب في الفصل الخاص بسخالين أسطر الكاتب الروسي العظيم أنطون

تشيخوف الذي قام بزيارة شهيرة إلى سخالين للوقوف على أحوال محكومي الجزيرة ووصف حياتهم. كتب تشيخوف: «إن التتار، حتى في ظروف الأشغال الشاقة لا ينسون أصلهم، ويحتفظون بشرفهم وكرامتهم (...) يختار التتار إماما من وسطهم. إن الإمام حسن رجل أسمر وسيم يبلغ عمره ٣٨ عامًا، من مواليد داغستان، وكان يقوم بترتيب غرفة الصلاة على نفقته الخاصة. وقد سألني إذا كان سيسمح له بزيارة مكة في نهاية فترة محكوميته». (١٤٦)

فصل مستقل في الكتاب يتعلق بمسلمي منشوريا الصينيين، حيث كانت روسيا قبل الحرب الروسية اليابانية تتاجر هناك ممثلة بالتجار التتار على وجه الخصوص. ولكن بعد انتهاء الحرب مع اليابان تم تغيير الحدود، وسحبت روسيا اختصاصيها، وتم فرض الرسوم الجمركية على التجار مما أدى إلى انهيار السوق في منشوريا. ترك التجار التتار ذكريات حيَّة تتعلق بزيارة المساجد في منشوريا وقد سجلوا عن الحالة المزرية للمجتمع المسلم هناك: «المعلم لا يختلف عن طلابه. وحين شرعنا بتصفح كتبه وجدنا مختصر القدوري وكتاب الهداية ونسخة من القرآن الكريم ومختصر المعاني. جميع الكتب باللغة العربية وقد بدا الأمر غريباً ألا وجود لشخص واحد هنا يتحدث العربية ولا يتم عمل شيء لاكتساب المعرفة» (١٥٦).

بالنسبة للفصل المخصص للفترة السوفيتية من تاريخ البلاد يطرح الباحثون احتمالين بديلين لتنمية المجتمعات الإسلامية وقتذاك، ولكن أيا منهما لم يتحقق. يتمثل الأول في تشكيل موجة من الإسلام السياسي أطلق عليها «الجديدية» حاول منظروها إيجاد أرضية مشتركة مع النظام السوفيتي الجديد مع الدفاع عن الحكم الذاتي للمناطق ذات الأغلبية المسلمة. ولكن بعد مرور وقت وجيز تم نزع السلطة الحقيقية من كل رجال الأديان. ثاني الاحتمالات التي بدت ممكنة في العهد السوفيتي يتركز على جزء من الأراضي التي صمدت فيها الحركة البيضاء في وجه المد الشيوعي (الأحمر) شمل أراضي ترانسبايكاليا ومنغوليا وكازاخستان ومراعي الشعوب البدوية في سيبيريا وممتلكات الإمبراطورية الروسية في آسيا الوسطى، يتم فيه إنشاء دولة متوسطية تتمتع فيها جميع الأديان بحقها الطبيعي في الوجود.

برغم كل ما حققه المجتمع الإسلامي من إنجازات وما رزئ به من نوائب، فإن المؤلفين يقفون على رأي وحدة المصير التي تجمع كل الشعوب التي تعيش في روسيا، وقد تركزت مهمتهم في هذا الكتاب على إظهار أصالة مسلمي الشرق الأقصى باعتبارهم مواطنين روس. ليس أدل على ذلك المثال الذي ساقه المؤلفون وعرضوا فيه موقف القيادة الإسلامية المتساوق مع الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في مواجهة الفاشيين عام ١٩٤١ والداعي لدعم النظام السوفييتي في صراعه ضد الغزاة الألمان. ففي الثاني من سبتمبر من عام ١٩٤١ كتب رئيس مديرية المسلمين عبدالرحمن رسولوف نداءً إلى جميع رعايا المسلمين، دعاهم فيه إلى معاضدة الحكومة مستقيا من القرآن والحديث لتحشيد المسلمين لمحاربة الغزاة.

· الكتاب: المسلمون في الشرق الأقصى. التاريخ والحداثة.

· المؤلف:عدة مؤلفين.

· دار النشر: الجوريتم/ كازان/ 2020.

· اللغة: الروسية

· عدد الصفحات: 656

*** أكاديمية ومستعربة روسية**

القيادة الاستثنائية اليومية: كيف تحدث فرقا بعيدا عن اللقب، والدور، والسلطة

جيمس كوزيس وبيري بوسنير

فينان نبيل *

يتصدر الرؤساء، والوزراء، وقادة الغزوات التاريخية والثورات، والقادة العسكريون، وقادة حركات التغيير العالمية، والمخترعون، والحاصلون على جوائز عالمية قوائم أعظم خمسين قائدًا في العالم، فهل يعني هذا أن الأفراد العاديين لا يصلحون لأن يكونوا قادة؟ هذا ما يجيب عليه المؤلف في كتابه، «القيادة ليست منصبا»، الذي جمع فيه بيانات من الملايين حول العالم، أكد من خلالها أن هناك قادة في كل مكان، ومجال وتخصص، من الكبار والصغار، والرجال والنساء، من كل عرق وقطاع ثقافي، وأن القادة لا يتواجدون على رؤوس المؤسسات والمنظمات وفي خطوطها الأمامية فحسب، بل هناك قادة خارج المؤسسات الرسمية وعلى كل المستويات المتوسطة والدنيا، وفي المؤسسات الاجتماعية، والنوادي، والأسر. يمكنك أن تحصل على لقب مدير، أو رئيس، ويكون لديك مرؤوسون يقدمون لك التقارير، بينما القيادة أمر لا يكتسب بمكانك داخل مؤسسة ما، إنما تكتسبه من سلوكك وتصرفك، ومن علاقاتك بمن حولك وعلاقتهم بك؛ القيادة ليست نقطة الصفر في المستوى الهرمي، فهي ليست رتبة، أو مركز قوة ونفوذ؛ ففي القاموس تشتق القيادة من «التوجيه» وهو محور القيادة، وتعني إرشاد الآخرين ممن يبحثون عن الإرشاد.

أجريت دراسة عالمية على أكثر من خمسة وثلاثين ألف شخص، وتم سؤالهم عمن يشكل لهم القدوة في حياتهم، فاختارت الفئة العمرية الأقل من خمسة وعشرين عامًا أحد أفراد الأسرة، يليه المعلم أو المشرف المباشر، بينما اختار من هم فوق خمسة وستين عاما، المشرفين في العمل، وآخرون اختاروا زملاء العمل. شكلت هذه الفئات إجمالاً أكثر من ثلاثة أرباع جميع الردود، ولم تتجاوز الفئة التي اختارت فئات قادة الأعمال، والمجتمع، والزعيم السياسي، والقائد الديني، والممثل أو الفنان، والمهني، والرياضي نسبة ١٦٪. هذا النمط من الاختيار مستقر نسبيًا عبر الجنسين، والمجموعات العرقية، والمستويات التعليمية، والصناعات، والمهن، وحتى المستويات الهرمية.

تأتي أهمية النتائج كونها تشير إلى أن نموذج القيادة للشباب، ليسوا شخصيات عامة؛ إنهم الأشخاص الذين تواصلوا معهم بشكل مباشر؛ فنجوم السينما، أو الرياضيون المحترفون، أو غيرهم من صانعي المحتوى على وسائل التواصل الاجتماعي ليسوا مصدرا للإلهام فيما يتعلق بشأن القيادة، فالشباب يتلمسون القيادة في الآباء، والمعلمين، والمدربين، ويبحثون عنهم كمثال في كيفية الاستجابة في التعامل مع الأزمات، أو المعضلات الأخلاقية،» فالقائد قد لا يكون شخصًا آخر؛ إنه أنت». ومن المرجح أن الاتصال المباشر يكون له تأثير في كيفية اختيار القائد، فقد تكون أنت نموذجا يحتذى به في القيادة لأقرب أشخاص إليك، أكثر مما يكون لشخص في قائمة لأفضل قادة في العالم.

كشفت النتائج أيضاً أنه في مؤسسات العمل قد يكون بين زملاء العمل نموذج يحتذى، أكثر مما تجده في قمة المنظمة من المشرفين، وقد يكون أكثر الأشخاص قدرة على التأثير في رغبتهم في البقاء، أو المغادرة، أو تغيير مسار حياتهم المهنية، وسلوكهم الأخلاقي، وقدرتهم على الأداء في أفضل حالاتهم، وتحفيزهم على المشاركة لخدمة رؤية المنظمة وقيمها.

تؤكد النماذج المختارة في القيادة على كافة المستويات، أن «القيادة علاقة» بين أولئك الذين يتطلعون إلى القيادة والذين يختارون اتباعها، بغض النظر عما إذا كانت علاقة رأس برأس، أو علاقة فردية بأطراف. فإذا كنت ستصبح قائدا يريد الآخرون اتباع توجيهاته عن طيب خاطر، يجب أن يكون هناك اتصال بشري يربطك بالآخرين. إن جودة هذه العلاقة هي التي ستحدد على المدى الطويل ما إذا كان الآخرون سيتبعون خطواتك أم لا، وإذا كنت تريد أن تقود بشكل فعال، وأن يتبعك الناس على مدار مشروع أو مسار وظيفي، فعليك فهم الصفات والسلوكيات التي يبحث عنها الناس في القادة الذين سيتبعونهم؛ فالعلاقة بين الناس التي تتميز بالخوف، وعدم الثقة لن تنتج أبدًا أي شيء ذي قيمة دائمة، بينما العلاقة التي تتسم بالاحترام، والثقة المتبادلة ستتغلب على أكبر المحن وتترك إرثًا ذا أهمية. تهتم أي مناقشة للقيادة بديناميات هذه العلاقة، والاستراتيجيات والتكتيكات والمهارات والتقنيات تصبح فارغة دون فهم التطلعات الإنسانية الأساسية التي تربط الناس بقادتهم،والقادة بشعوبهم. الإنسان ليس مضطرا لاختيار أن يكون تابعا لشخص آخر، فما هو نوع الشخص الذي سيستمع إليه، ويأخذ منه النصيحة، ويتأثر به؟ لتكون الشخص الذي يريد الآخرون اتباعه طواعية وبحماس، يتطلب الأمر ضرورة فهم التوقعات والاستجابة. تم إجراء استطلاعات روتينية على مدار الأربعين عاما الماضية حول القيم والسمات والخصائص الشخصية التي يشير إليها الأشخاص بأنها الأكثر أهمية بالنسبة لهم في الفرد الذي سيتبعونه، فشتان أن تتبع شخصا لأنه يجب عليك ذلك، وبين أن تتبع فردا لأنك تريد ذلك، المفتاح هو،عن «طيب خاطر».

أظهرت استجابات مائة وعشرين ألف شخص على مر السنوات أن الأشخاص يجتازون العديد من الاختبارات الشخصية الأساسية، قبل أن يتم اختيارهم قادة من قِبل أشخاص آخرين، ورغم الاختلافات الديموغرافية، والتنظيمية، أكد أغلب الأفراد أنهم يتبعون الفرد حينما يؤمنون أنه صادق نزيه، وجدير بالثقة، وذو شخصية أخلاقية بنسبة ٨٧٪ . ظل ما يبحث الناس عنه في قادتهم ثابتا بمرور الوقت على الرغم من القوى المتغيرة باستمرار والتي تؤثر على الاقتصاد، والحياة الاجتماعية. أشار علماء النفس الاجتماعي، وخبراء الاتصالات أن القائد يعتبر «مصدرا» لتقييم مصادر المعلومات. إذا كنت ستطلب من الآخرين أن يتبعوك إلى مستقبل غير مؤكد، في رحلة تواجه صعوبات، وربما تضحيات، فمن الضروري أن يؤمن الناس بك، يجب أن يكون الناس قادرين على تصديق أنه يمكن الوثوق بكلماتك، وأنك ستفعل ما تقوله، وأنك متحمس حقا للاتجاه الذي تتجه إليه المجموعة، وأن لديك المعرفة والمهارات اللازمة للقيادة. يقود هذا إلى القانون الأول للقيادة، إذا كان الناس لا يؤمنون بالرسول، فلن يصدقوا الرسالة،»المصداقية أساس القيادة».

الممارسات الخمس للقيادة النموذجية

أجريت دراسات منذ الثمانينيات حول التجارب الشخصية لأفضل قادة لمجموعة من مختلف الجنسيات، والمؤسسات والخلفيات،ومستويات التعليم،من خلال مقابلات مع طلاب الجامعات، وأفراد في العمل، والمديرين المتوسطين في الشركات الكبيرة والصغيرة، والمتطوعين في المجتمع، والمديرين التنفيذيين حول الأوقات التي تفوقوا فيها في القيادة. عند تحليل آلاف من أفضل القصص الشخصية التي تم جمعها، ظهر درسان،الأول، تختلف تفاصيل القصص من شخص لآخر على أساس عدد لا يحصى من العوامل. الدرس الثاني،

هو أن تصرفات وسلوكيات القادة عندما تكون في أفضل حالاتها متشابهة أكثر مما هي مختلفة. هناك مجموعة من السلوكيات الشائعة عالميا، وقد صمدت أمام اختبار الزمان والمكان. علاوة على ذلك، أثبت مئات العلماء المستقلين صحة ذلك في دراساتهم الخاصة التي تبحث في الدور المركزي الذي تلعبه القيادة في الرفاهية الشخصية، والإنتاجية التنظيمية، والفعالية، وأن القيادة المثالية موجودة في كل ركن من أركان العالم، وكل مجتمع، ومنظمة، وكل نوع من الأفراد. تم جمع السلوكيات المثلى للقادة في نظام تشغيل قيادي يسمى الممارسات الخمس للقيادة المثالية، وهي نمذجة الطريق، وإلهام رؤية مشتركة، وتحدي العملية، وتمكين الآخرين من العمل، وتشجيع القلب.

نمذجة الطريق : يكون القائد نموذجا للطريقة التي يُمنح بها اللقب، وسلوكه هو ما يكسبه الاحترام، فيعلق أحد القادة «لم استطع إخبار أي شخص بما يجب فعله،كان علي أن أظهره لهم،كان علي أن أكون نموذجا يحتذى به للسلوك الذي أريده من الآخرين؛ فالقادة المثاليون يعلمون أنه إذا كانوا يريدون كسب احترام الناس من حولهم وتحقيق المعايير، يجب أن يكونوا نموذجا للسلوك الذي يتوقعونه من الآخرين. يفهمون القيم التي يعتزون بها ويوضحونها، يتحدثون بصدق عن المعتقدات التي توجه قراراتهم، وإجراءاتهم، ويأخذون في اعتبارهم أن معتقداتهم ليست الوحيدة المهمة، فالقادة يتحدثون باسم المجموعة، والفريق، المنظمة، والمجتمع.

استلهام رؤية مشتركة: يصف الناس تجاربهم الشخصية الأفضل في مجال القيادة على أنها أوقات تخيلوا فيها مستقبلًا مثيرًا وذا مغزى لأنفسهم وللآخرين، واستلهام رؤية مشتركة، ثم إبلاغها في شكل إجراءات للفريق، وإشعارهم أن الجميع بحاجة إلى الالتزام بالرغبة في جعل الرؤية المشتركة حقيقة، كلما زاد تخيل القائد لما هو ممكن، تمكّن من وصف ما قد يخبئه المستقبل للجميع بشكل أكثر وضوحًا. ويجب أن يكون هناك هدف مشترك، يولد لديهم الرغبة في إنشاء شيء لم يبتكره أحد من قبل. كان لدى القادة المتميزين رؤى مستقبلية، وإيمان وثقة مطلقان بأن تلك التطلعات يمكن أن تصبح حقيقة واقعة .

التحدي العملي، أكدت جميع حالات القيادة أنه لا يمكن تحقيق أفضل أداء في ظل الحفاظ على الأوضاع الراهنة، فقد أكد الجميع أنهم بحاجة دائمة إلى تغيير العمل المعتاد، ومناخه، من خلال إيجاد طرق دائمة للتجربة والتعلم. يعلم القادة أن الأشياء الكبيرة تتم دائما عن طريق القيام بالكثير من الأشياء الصغيرة. القادة في أفضل حالاتهم يخرجون إلى المجهول،ويبحثون باستمرار عن الفرص ويغتنمونها، ويأخذون بزمام المبادرة، ويتطلعون إلى إيجاد طرق مبتكرة لتحسين الأوضاع القائمة. التحدي هو بوتقة العظمة؛ إنه يوفر السياق الذي تتفاعل فيه العقبات مع الرؤية لصنع قيادات غير عادية كل يوم. القادة استباقيون، إلا أنهم ليسوا وحدهم منشئي البرامج أو الخدمات أو العمليات الجديدة،

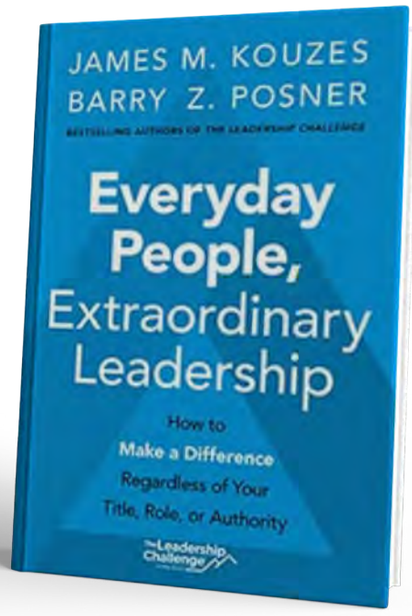

فالابتكار لديهم يأتي من الاستماع أكثر من التحدث. عند التحدي العملي، غالبًا ما تكون مساهمة القائد الأساسية هي الاعتراف بالأفكار الجيدة، ودعم تلك الأفكار، والاستعداد للتحدي للحصول على منتجات وعمليات وخدمات وأنظمة جديدة معتمدة. وجد الكاتب أيضا أنه في أفضل تجارب القيادة الشخصية أن القادة يخاطرون، ويتعلمون من التجربة باستمرار.

تمكين الآخرين: يُمكّن القادة الآخرين من تمثيل أنفسهم، فالأحلام الكبرى لا تصبح حقائق من خلال تصرفات الفرد. القادة في أفضل حالاتهم الشخصية، أظهروا تقديرهم لهذه الحقيقة بعبارات مثل: «كان من الضروري مراعاة وجهات نظر كل شخص والتأكد من أن القرارات اتخذها الفريق وليس القرارات الفردية «. المفتاح هو بناء العلاقات مع الأشخاص المطلوبين لمساعدتنا في تحقيق ذلك، ومنحهم المساحة لعرض وأداء عملهم». القيادة جهد جماعي، وليست أداءً منفردًا، ولعمل أشياء غير عادية في المنظمات، يفخر القادة المثاليون بتعزيز التعاون من خلال بناء مناخ من الثقة وتسهيل العلاقات. يراعون احتياجات ومصالح الآخرين، إنهم يجمعون الناس معًا، ويخلقون جوًا يفهم فيه الناس أن لديهم مصيرًا مشتركًا.

تشجيع القلب: عندما يثق الناس بك، فإنهم يكونون أكثر استعدادا لتحمل المخاطر،وإجراء التغييرات، والحفاظ على الزخم الدافع للأمام، فيأتي تشجيع قلوبهم من أجل الصعود إلى قمة أي مسعى جديد مهما كان مليئا بالتحديات،وشاقا،ومنحدرا. وليس من المستبعد أن يصاب الناس بالإرهاق والإحباط، وخيبة الأمل. أشار القادة في أفضل تجاربهم الشخصية في القيادة إلى أنه يتعين عليهم تشجيع قلب أولئك الذين كانوا يعملون معهم خاصة عندما بدأوا يميلون إلى الاستسلام،فأكدوا أن «عليك أن تُظهر للناس أنك تهتم بهم كأشخاص وكيف أنهم قادرون على فعل الكثير مما يعتقدون «. يعد التشجيع والمديح هما أفضل الهدايا؛ لأن الناس بحاجة إلى الحصول عليها. يجب أن يشعرهم بالرعاية الحقيقية سواء في إيماءات درامية،أو أفعال بسيطة ترفع معنوياتهم وتحفزهم وتحافظ على حماسهم. إن إظهار التقدير للتميز الفردي ومساهمات الآخرين جزء أصيل من عمل القائد على مر السنوات. هناك الآلاف من الأمثلة على التقدير الفردي والاحتفال الجماعي، إنما تشجيع القلوب لا يتعلق بتنظيم الاحتفالات وتوزيع الجوائز لخلق شعور مصطنع من الصداقة الحميمة. الأمر يتعلق بخلق روح جماعية؛ إذ يُعد تشجيع الفريق أمرًا ذا قيمة لأنه يعزّز بشكل واضح ما هو مهم ويظهر تقديرك للإجراءات التي تدعم قيم الفريق، سواء أكان السعي لرفع معايير الجودة، أو التعافي من الكوارث، أو إجراء تغيير جذري من أي نوع، عندما تتم الاحتفالات والطقوس بأصالة ومن القلب، فإنك تبني إحساسًا قويًا بالهوية الجماعية وروح المجتمع .

لا تمثل ممارسات القيادة الخمس السابقة أيديولوجية، أو نظرية حول القيادة بقدر ما توفر نظام تشغيل لما تعنيه «ممارسة القيادة لإحداث فرق». الانخراط في أي من السلوكيات المرتبطة بالممارسات الخمس لا تتطلب شخصية معينة، أو خصائص ديموغرافية محددة، أو درجات تعليمية متقدمة. ربما لا تعتقد أنه يمكنك ممارسة القيادة ولا ترى نفسك كقائد ؛ بينما أنت تقود بالفعل، فعند تحليل الشخصية القيادية الأفضل، أكدت التجارب أن القيادة مجموعة من السلوكيات والأفعال متاحة للجميع، القيادة ليست صفة صوفية، أو حكرا لفئة خاصة من الأشخاص الكاريزماتيين، إنها ليست جينًا أو صفة في الحمض النووي لقلة مباركة، إنها ليست سمة شخصية واحدة، أو موهبة فطرية خاصة يمتلكها بعض الناس ولا يمتلكها البعض الآخر، ليست قوة فردية؛ القيادة هي مجموعة من السلوكيات والأفعال المتاحة للجميع، فقد تكون قمت بدور القائد بالفعل دون أن تقصد، ربما لا تقود بشكل متكرر بما فيه الكفاية، لكنك تقود.

- الكتاب: القيادة الاستثنائية اليومية: كيف تحدث فرقا بعيدا عن اللقب، والدور، والسلطة.
- المؤلف: جيمس . م. كوزيس وبيري . ز. بوسنير
- الناشر: New Jersey : The Leadership Challenge
- سنة النشر: 2021
- اللغة: الإنجليزية

* كاتبة وباحثة مصرية

فهدُ أسود: قصة حياة رءوبين أبرجيل

تمار فيرتا - زهافي

أحمد أشقر *

تعتبر السيرة الذاتية مصدراً هاماً من مصادر التأريخ والتاريخ، لأنَّ معاصري وصنّاع الأحداث التاريخية هم أفضل كُتّابها وشُرّاحها، والكتاب الذي بين أيدينا هو واحد من هذه المصادر الغائبة عادة ضمن الأدبيات العربيّة التي قلما تنقل ما يُحيط بإسرائيل ويجري فيها من أحداث داخلية، ولا يعتبرها علم التأريخ والاجتماع العربيّين والسياسيين ذات أهمية كبرى.

يعتبر (رءوبين) أو (روبين)- كما يناديه معارفه والناس- واحدا من أهم مؤسسي وقيادات حركة الفهود السود التي نظمّت احتجاجات اليهود الشرقيين ضدّ سياسة دولة إسرائيل الأشكنازية في سنة ١٩٧١. والكتاب المشار إليه يتحدث عن سيرة (روبين) ومواقفه بدقة بالغة في قالب أدبي يشبه الروايات التسجيليّة. وسأقوم بعرضه عن طريق تحقيبه إلى فترات ومحطات تاريخية مختلفة يبرز فيها الصراع الإثني في (إسرائيل) مُعلقاً عليها وشارحاً لها بناء على معرفتي بهذا الصراع الذي اطلعت على أدبياته منذ مطلع ثمانينات القرن الماضي.

(دي. دي. تي) في حيفا

يتذكر الطفل (روبين) المولود في الرباط سنة ١٩٤٦ حياة مستقرة دون توترات مع جيرانه العرب، حيث كان والده يعمل في صيانة بيوت الفرنسيين، إضافة لكونه من رواد الحفلات التي كانت تقيمها زهرة الفاسيّة، مطربة يهودية كانت تغني في قصر الملك محمد الخامس. وعرف صدفة أن عمته (أستاريا)، عضوة في حركة صهيونية سريّة رتبت أمر هجرة العائلة (واليهود) إلى فلسطين. وتم نقلهم سرّاً من الرباط إلى الجزائر، وفيها التقى لأول مرة بمندوبي الوكالة اليهودية الذين تحدثوا مع والده «بقلّة أدب». دام الانتظار في الجزائر أكثر من سنة (ص ٩- ٣٩). وفيما بعد في (إسرائيل) ستتحول زهرة الفاسيّة إلى رمز مركزي في أدب اليهود المغاربة، تحديداً عند الشاعر (إيريز بيطون) الذي تعرف عليه (روبين) في خضم احتجاجات حركة «الفهود السود».

ومن الجزائر تم نقلهم إلى (تولوز) بفرنسا لجلبهم فيما بعد إلى «الأرض المقدسة». وهناك جاءت فلاحة فرنسيّة عرضت على اليهوديات العمل معها في قطاف الأرضي شوكي. رفضت النساء إلا والدة (روبين) قائلة «يجب شراء أحذية وملابس للأبناء». ورغم معارضة زوجها، بدأت (أم روبين) بالعمل خارج المنزل لأول مرة في حياتها (ص ٤٠- ٤٦). ما حدث لـ(أم روبين) في (تولوز) مقدمة لما سيحدث لجميع المهاجرات الشرقيات في فلسطين. مع الوقت تحوّل المصطلح: «مَرُكّويّة»، أي امرأة مغربية (وضيعة)، إلى شتيمة بين العرب واليهود في فلسطين.

تم نقلهم من (تولوز) إلى ميناء (مارسيه)، وبعدها إلى ميناء حيفا. قبل نزولهم من الباخرة ارتدت عائلة (روبين) ملابس العيد. لكن فرحتهم بالوصول إلى «التراب المقدس» لم تدم سوى لحظات داهمهم بعدها رجلان يلبسان ملابس بيضاء ورشّوهما بمادة بيضاء. كان ذلك في أيار سنة ١٩٥٠ (ص ٤٧- ٥١). فيما بعد عَرَف المهاجرون اليهود أن هذه المادة عبارة عن مبيد حشرات يدعى (دي. دي. تي)، سيتحول فيما بعد إلى علامة على احتقار الصهيونيّة الأشكنازية لليهود الشرقيين.

في المصرارة

تم شحن العائلة من ميناء حيفا إلى مستعمرة (برديس حانه) إلى الجنوب من حيفا، وإسكانهم في معسكر مؤقت يدعى (معبراه). هناك صُدم المهاجرون من تدني مستويات العيش، والسكن والخدمات العامة إلى درجة «رغبة بعضهم بالتقيؤ»، فالأرض المقدسة بدت لهم «جهنم». اضطر الرجال للعمل في المياومات الشاقة التي لم يعهدوها في المغرب بما فيهم (أبو روبين) الذي بدأ يعمل بتعبيد الطرق. من (المعبراه) تم «تهريب» العائلة إلى حيّ المصرارة في القدس وتوطينهم في بيوت اللاجئين العرب. حينها علّق (روبين) متسائلاً: «في البداية هربنا من المغاربة، بعدها من الجزائريين، بعد ذلك من الفرنسيين والآن من اليهود الإسرائيليين... هل كلهم أعداؤنا؟ ماذا فعلنا لهم؟». أفرغتهم الشاحنة في المصرارة أمام منزل لعائلة عربيّة تم طردها أثناء حرب ١٩٤٨، وسرعان ما فهموا أن المصرارة عبارة عن مركز دفاع عن مركز المدينة «الأشكنازي». فيها أُسكنت العائلة في غرفة واحدة ببيت مكون من طابقين أُسكنت فيه عدة عائلات. في هذه المرحلة، اضطر الطفل (روبين) ابن السابعة لبيع طوابع البريد التي جمعها في المغرب وشراء بعض الكتب خبأها في زاوية ببيت عربيّ مهجور. وعندما اكتشف مدير مدرسته «مكتبة» (روبين) ضربه لأنه اعتقد أنه سرق الكتب. هرب (روبين) من المدرسة ولم يعد إليها. في المصرارة تم جزّ شعره ورَهَمت المرضة رأسه بمادة حارقة ضد الحزاز «أكثر إيلاما من لسعة مليون نحلة»، ثم قام «سفاحون» ووضعوا رأسه داخل قبعة (ص ٥٢- ٧٤). هنا بدأ (روبين) والشرقيون يدركون أن جنة الصهيونية الموعودة في فلسطين تحولت إلى «جهنم». وأُضيفت قضية رهم رؤوسهم بمادة ضد الحزاز إلى حادثة رشّهم بالـ(دي. دي. تي) في حيفا. كان بقاؤهم في المصرارة ٤- ٥ سنوات عبارة عن تثبيت حالهم ومكانتهم في السُلم الاجتماعي الاقتصادي تحت مستوى الأشكناز. فيما بعد أسكنتهم الدولة في أحياء ومستعمرات ثابتة في جنوب شرق وشمال فلسطين كي يكونوا بمواجهة دائمة مع العرب- كما سنرى لاحقاً.

مثلما عاملونا هناك... «في ألمانيا النازيّة»

اضطر (روبين) ووالدته للعمل في بيوت أغنياء الأشكناز، الذين نظروا إليهما بعين الشكّ والريبة. ولم يمكنهما الأجر الضئيل الذي تقاضياه من شراء طعام كاف للأسرة، لذا كان ينام أفرادها جياعاً. كان مولعاً بقراءة (تشارلز ديكينز) الذي تحدث عن الفقر في لندن أواسط القرن التاسع عشر. حين بلغ (روبين) الثانية عشرة من عمره، كان يعمل في كل شيء ممكن أن يُربح فلساً لمساعدة العائلة. نتيجة لاعتقالاته المتكررة تم إرساله إلى العاملة الاجتماعية (ليئه هولتسر) التي كتبت أنها ستفعل كل ما في وسعها كي لا يتم إدخاله إلى سجن الفتيان الجنائيين. (هولتسر)، الناجية من المحرقة النازيّة، تعاطفت مع (روبين) وكشفت له أنها عوملت مثله في ألمانيا النازية، وكتبت في ملفه ما يلي: «إذا واصلتُ الحديث مع ر. أبرجيل سأتمكن من كتابة بحث قيّم ينفي ادعاءات عميد كليّة التربية في الجامعة. أنا متأكدة أنه لم يتحدث مع فتى ممن يكتب عنهم. أنا متأكدة أنه لم يسمعهم. لم يُصغ لهم. لم يولدوا أقل ذكاءً ونجاحاً من الأولاد الآخرين. هناك من اهتم لجعلهم هكذا». وقالت ذات مرة: «نعاملُ «الدولة» القادمين من الدول العربية مثلما عاملونا هناك... «في ألمانيا النازية». عندما تيقنت أخته الكبرى (أوديت) أن بقاءَ أخيها في المصرارة واعتقالاته المتكررة من قبل الشرطة ستؤدي به إلى السجن وعالم الإجرام، تم إرساله إلى (كيبوتس) ليحظى برعاية أفضل (ص ٩٤- ١٦٤). هذه المحطات وإن كانت مكثفة فإنها هي التي صاغت وعي (روبين) إلى يومنا الراهن، وأفهمته أن دولة إسرائيل مكونة من الأسياد الأشكناز

والعبيد الشرقيين، ومن أجل القضاء على هذه الوضعية يجب على الشرقيين أن يخوضوا صراعهم ضد الأشكناز.

عصيان وادي الصليب

في (٨. ٧. ١٩٥٩) اندلعت مظاهرات من قبل مهاجرين يهود أسكنتهم إسرائيل في حيّ وادي الصليب العربي بحيفا، احتجاجاً على البؤس والجوع. سرعان ما انتشرت وتوسعت إلى مناطق أخرى، وفي المصرارة اندلعت مواجهات مع الشرطة لم تكن بمستوى عنف وادي الصليب، كان (روبين) أحد محركيها (ص ١٦٥- ١٦٩). نتيجة لهذا العصيان قامت الدولة ببعض الإصلاحات لحالهم، الذي لا يزال يشكل المحطة الأولى من محطات الصراع الإثني في إسرائيل.

حركة الفهود السود

بعد عدوان حزيران ١٩٦٧ واحتلال القدس سارع (روبين) لزيارة صديقه القديم إسماعيل بيتوني الذي افتتح فيما بعد هو وعائلته ثلاثة مقاهٍ فأصبح زبوناً دائماً عندهم، وسرعان ما دخل عامل آخر على الصراع الأشكنازي- الشرقي، وهو العمال العرب الذين بدأ المشغلون الأشكناز يستخدمونهم بأجر أقل من أجر اليهودي الشرقي. عندما تزوج (روبين) من (رينا) سكنا في تخشيبة بالمصرارة فساعده إسماعيل بماله وعمل أصدقاؤه بفتح بسطة تعتاش منها عائلته. بعد ثلاث سنوات بدأت الدولة ببيع بيوت المصرارة العربية للمقاولين وتجار العقارات اليهود فطردت عشرات العائلات الشرقية منها. فهم (روبين) وأمثاله أن مصيرهم الطرد من المصرارة التي انطلقت منها أول مظاهرة احتجاج للفهود السود في (٣. ٣. ١٩٧١) قالت عنها الشرطة أن هذه الاحتجاجات ستوحد أحياء ومستعمرات الفقر في الدولة، وهذا ما حصل. كان (روبين) أحد منظميها وعضو وفد الحركة الذي اجتمع برئيسة الحكومة (جولدا مئير)، التي وصفتهم بأنهم «مش لطفاء» فأصبح هذا الوصف مثالاً في الأدبيات عن الفهود السود. وفي (٨. ٥. ١٩٧١) اندلعت موجة احتجاجات ثانية شاركت فيها مجاميع أخرى تضامناً معهم. واجهت الشرطة هذه الأحداث مثل عصيان وادي الصليب بالقمع والاعتقالات ومطاردة النشطاء. وبسبب الجوع قامت مجموعات من الفهود السود بـ«سرقة» الحليب والخبز من الحوانيت والمخابز لتوزيعها على الجياع من الشرقيين (ص ١٧٠- ٢٤٥). بعد هذه الاحتجاجات عملت الدولة على بعض الإصلاحات إلا أنها لم تكن كافية لأن الفروقات بين الأشكناز والشرقيين باتت بنيوّية. في بحثه «ليسوا فاشلين بل مُفشلين: الشرقيون والأشكناز في إسرائيل»- تحليل اجتماعي ومحادثات مع نشطاء وناشطات، ١٩٨١ يؤكد الباحث (شلومو سفيرسكي)، أن في إسرائيل ثلاثة مسارات منفصلة تحددها بُنية لا يمكن اختراقها تبدأ من الأسفل: العرب، ثم الشرقيون، والأشكناز الذين يسيطرون على الثروات.

محاولة القضاء على (روبين)

بعد تلك الأحداث عاش (روبين) «سبع سنوات سِمان».

تبعتها «السبع العجاف» بعدما اعتقلته الشرطة (وثلاثة من إخوته، حيث قضت المحكمة بسجنهم عدة سنوات). وبالنتيجة تم إبعاده إلى حيفا لمدة سنة، فخرج من هذه التجربة محطماً يرتاب منه كل من يراه من الشرقيين ومدمناً على المخدرات فُطِم عنها أثناء رحلة علاج بفرنسا. ولا يزال يعيش في القدس، حيث يحاضر عن النضال الشرقي ويساعد أصدقاءه بحلّ مشاكلهم اليومية (ص ٢٤٦- ٢٧١). استخدمت الدولة ضدهم سلاح الملفات الجنائية لغالبيّة أبناء الجيلين الأول والثاني منهم، مما حرمهم من الاندماج والعمل في مؤسساتها.

عرب ضد العرب

لا تزال الصهيونية تدعي إقامة دولة إسرائيل وطناً لكل يهود العالم. لذا يُطرح السؤال: لماذا لا تزال الدولة الأشكنازية تعاملهم على هذا النحو؟

بات واضحاً من مذكرات رواد الصهيونية وإسرائيل أن «اليهود العرب»- كما يسمونهم- لم يكونوا في الحسابات الصهيونية قبل محرقة اليهود في الحرب العالميّة الثانية. لكن بعدها تم استجلابهم على عجل دون استعداد وإعداد مسبقين. وحتى نهاية ثمانينيات القرن الماضي تم التعبير عن هذه الحالة بنوادر شعبيّة مثل: أحضروا العراقيين كقطع غيار للغربيين، والمغاربة للعراقيين، واليمنيين للعراقيين، والأثيوبيين لليمنيين.

تم توطين اليهود الشرقيين في المناطق المحاذية لأحياء عرب ٤٨ في القدس ويافا واللد والرملة، والمستعمرات المحاذية لقطاع غزة في الجنوب، وغور الأردن والجليل الأعلى. ويوضح أحد أبرز منظري الفهود السود (كوخاي شيميش) السبب بقوله: «يشكل الشرقيون رافعة معادية للعرب. إذا كان الجزء الأكبر من ميزانية الدولة موجهاً إلى الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني والدول العربيّة، فمن الواضح أن الكثير من أبناء الشبيبة وسكان الضواحي «اليهود الشرقيين» سيحاولون الاندماج في المؤسسة الأمنيّة. وبالفعل، يخدم الكثير من الشرقيين في الجيش والشرطة كضبّاط أو في الخدمة الدائمة في الشرطة، وفي مصلحة السجون و«المؤسسات الأمنيّة». من يتابع هذا الملف يمكنه ملاحظة ما يلي: في الستينيات كان اليهود الشرقيون في منطقة مستعمرات غور الأردن هدفاً لعمليات الفدائيين الذين تسللوا من الأردن، وفي الثمانينيات- التسعينيات هدف المقاومة من لبنان في الجليل الأعلى، وبعد الانسحاب من غزة سنة ٢٠٠٥ تحولوا إلى هدف صواريخ المقاومة من غزة. بدا هذا أكثر وضوحاً في المواجهة الأخيرة (١٠- ٢١ أيار ٢٠٢١) عندما كثفت المقاومة قصف مستوطنات جنوب فلسطين بالصواريخ الأمر الذي اعتبره المحللون الإسرائيليون أكثر النقاط ضعفاً في الجبهة الداخلية للكيان.

تقول الباحثة اليهودية العراقية (حبيبة شوحط) أن العرب هم الضحايا المركزيون للنكبة وأن اليهود الشرقيين هم الضحايا الثانويون لها. قمعتهم الصهيونية الأشكنازية فأقصت اليهود العرب منها، من خلال القضاء على الثقافة الشرقية اليهودية. وهنا يُطرح سؤال: لماذا لم يتفق العرب والشرقيون على نضال مشترك ضد المؤسسة الأشكنازية؟ في سبعينيات القرن الماضي أوكلت (م. ت. ف) ملف اليهود الشرقيين إلى محمود عبّاس (أبو مازن) الذي أصبح فيما بعد، رئيس السلطة الفلسطينيّة، وفقط! أما عرب ٤٨ فقد سيطر الحزب الشيوعي الإسرائيلي على ضبط إيقاعهم السياسي (النضالي)، الذي اعتبر الصراع طبقيّاً وليس إثنيّاً. فيما بعد ضمّ إلى قائمته الانتخابية بعض الشرقيين، وفقط! (روبين) شخصيّاً غاضب جداً على القيادات العربية لأنها لم تتجاوز القيادة اليهودية الأشكنازية في الحزب الشيوعي، وفي الذكرى الستين للنكبة، سنة ٢٠٠٨، أصدر بياناً طالب فيه إعادة اللاجئين العرب إلى فلسطين، وإعادة المجلوبين اليهود الشرقيين إلى أوطانهم العربية، عندما سيعود اليهود الأشكناز إلى أوطانهم، ونبقى نحن العرب واليهود العرب في البلاد لبناء حياة جديدة- كما يؤكد دائماً.

· الكتاب: فهدٌ أسود: قصة حياة رءوبين أبرجيل

· الكاتبة: تمار فيرتا- زهافي

· دار النشر: الكيبوتس الموحد

· سنة النشر: 2020

· عدد الصفحات: 27 صفحة في العبريّة

*** باحث في الدراسات الدينية ومترجم من فلسطين**

الطفرة والتمثال: تاريخ عالمي للفقاعات المالية

ويليام كوين وجون تورنر

زينب الكلبانية *

لقد مر ٢١ عاما فقط على القرن الحادي والعشرين، وحدثت بالفعل ثلاث أزمات اقتصادية كبرى، كل واحدة منها أسوأ من سابقتها. بدأ القرن بتباطؤ عالمي حاد في أكبر اقتصادات العالم، مثل الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي واليابان. وتوج التباطؤ بانهيار الدوت كوم في الأسواق المالية، الناجم عن المضاربات المفرطة في شركات الإنترنت. كانت الأزمة المالية لعام ٢٠٠٨ أكثر تدميرا، حيث دمرت الدخل، وسحقت حياة الطبقة الوسطى، وزادت من عدد العمال ذوي الدخل المنخفض. نحن الآن نعاني من الأزمة الرئيسية الثالثة، والتي تسارعت بسبب الإغلاق الاقتصادي الناجم عن جائحة كورونا. لقد عالجت حكومات الولايات الليبرالية، وخاصة الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، الصعوبات الاقتصادية بطريقة غير كفؤة في أحسن الأحوال. لا تزال معدلات البطالة مرتفعة، ودُمرت الدخول، وأفلس عدد غير مسبوق من الشركات الصغيرة.

يبدو أن الفقاعات المالية التي غالباً ما تؤدي إلى أزمات اقتصادية تحدث أكثر فأكثر. ومن الأمثلة الحديثة البارزة، فقاعة العملة المشفرة. ارتفع سعر البيتكوين الواحد من ٥٥٥ دولارا في أغسطس ٢٠١٦ إلى ١٩٧٨٣ دولارا في ديسمبر ٢٠١٧؛ بعد عام واحد، انخفض إلى ٣٢٦٣ دولارا، وفي نهاية عام ٢٠٢٠ وصل إلى أعلى مستوى جديد على الإطلاق عند ٢٩٢٨٠ دولارا. خلال السقوط الحر في عام ٢٠١٨، وصف البروفيسور نوريل روبيني من جامعة نيويورك العملة المشفرة بأنها «أم جميع عمليات الاحتيال» و «أم وأب جميع الفقاعات». الارتفاع الصخري في الأسعار لمدة عامين لم يغير رأي روبيني.

عندما تنفجر الفقاعات المالية، فإنها لا تدمر الثروة فحسب، بل يمكنها أيضا الإضرار بالاقتصاد الكلي. لها عواقب وخيمة على أولئك الذين لم يشاركوا في النشاط الذي تسبب في الطفرة التضخمية الأولية للفقاعة، أو ما أطلق عليه رئيس الاحتياطي الفيدرالي السابق ألان جرينسبان «الوفرة غير العقلانية».

في كتابهم الجديد الرائع الذي يسهل الوصول إليه بشكل كبير (الطفرة والتمثال: تاريخ عالمي للفقاعات المالية)، أخذنا المؤلفان ويليام كوين وجون تورنر، في جولة تاريخية مدتها ٣٠٠ عام، لأشهر ١٢ فقاعة مالية في العالم. ابتداء من عام ١٧٢٠ في مخططات الدول الثلاث لتمويل الدين العام في فرنسا وإنجلترا وهولندا، انتهى الكتاب في القرن الحادي والعشرين المليء بالفقاعات، مع فقاعة الإنترنت في عام ٢٠٠١، وفقاعة العقارات الأمريكية في عام ٢٠٠٨، وفقاعات سوق الأسهم الصينية في عامي ٢٠٠٧ و٢٠١٥. ومع ذلك، فإن هدف هذا الكتاب ليس تاريخيا تماما. بدلاً من ذلك، يهدف كوين وتورنر إلى فهم سبب حدوث الفقاعات، والمساهمة في تدابير السياسة التي نأمل أن تساعدنا في «وضع سياسات قد تمنع الفقاعات» وتقليل الضرر الذي تسببه.

وجد كوين وتيرنر أن التفسير التقليدي للفقاعات على أنه السلوك «غير العقلاني» للمستثمرين «غير مفيد» - في الواقع، «عديم الفائدة تقريبا» لفهم ديناميكيات الفقاعة. وبالمثل، فإن مصطلح «فقاعة» بحد ذاته مثير للجدل. كعدسة تحليلية بديلة، يقترحان إطار عمل «مثلث الفقاعة».

يبدأ «مثلث الفقاعة» مجازياً بالنظر إلى الفقاعات المالية على أنها حرائق. الحرائق مدمرة ويصعب إيقافها بمجرد اندلاعها. يمكن أن تكون مفيدة أيضًا لبعض النظم البيئية من خلال توفير شروط للتجديد. بالنظر إلى مستويات كافية من الأكسجين والوقود والحرارة، يمكن أن يبدأ الحريق بشعلة بسيطة. يتطلب إطفاء الحريق إزالة مكون كيميائي واحد على الأقل. في الحريق المالي، تكون المكونات الكيميائية التناظرية، على التوالي، قابلية التسويق (قدرة السلعة على التسويق)، والمال / الائتمان والمضاربة؛ الشرارة من مصدرين، الابتكار التكنولوجي أو السياسة الحكومية. يوضح كوين وتيرنر، فصلا تلو الآخر، كيف يشرح الإطار التحليلي الخاص بهما كيف تبدأ الفقاعات المالية وكيف تنتهي. إنهما يحافظان على إطار المثلث الفقاعي الخاص بهما الذي يوفر القدرة التنبؤية للفقاعات المستقبلية.

تميل الأدبيات الاقتصادية إلى شرح أسباب حلقات تاريخية محددة، بينما يوفر إطار مثلث الفقاعة نظرية أكثر عمومية لشرح أسباب الفقاعات. بالإضافة إلى ذلك، على الرغم من أن سلوك المستثمرين الشبيه بالقطيع لجون ماينارد كينز وفرضية عدم الاستقرار لدى هيمان مينسكي هي نظريات قوية للتنبؤ بالتكرار المنتظم للفقاعات، إلا أنهما أقل قدرة على تفسير سبب عدم حدوث فقاعات كبيرة من عام ١٩٣١ إلى عام ١٩٨١. ويملأ إطار عمل كوين وتيرنر هذه الفجوة التحليلية.

أظهر كوين وتيرنر قوة الإطار التحليلي الخاص بهما، من خلال فحص اثني عشر «مثلثات فقاعية» مالية تاريخية في عشرة فصول مكتوبة بشكل رائع ومسلية للغاية، ومثقفة بشكل استثنائي. وهي تغطي الفقاعة الأولى في عام ١٧٢٠، فقاعة أسهم التعدين في أمريكا اللاتينية في عشرينيات القرن التاسع عشر، وفقاعة أسهم السكك الحديدية في المملكة المتحدة في أربعينيات القرن التاسع عشر، وفقاعة الأرض الأسترالية في ١٨٨٦-١٨٩٣، وفقاعة الدراجات في المملكة المتحدة في تسعينيات القرن التاسع عشر، وفقاعة سوق الأسهم الأمريكية في عشرينيات القرن الماضي، وفقاعة الأسهم والعقارات اليابانية في ١٩٨٥-١٩٩٢، وفقاعة الدوت كوم في ١٩٩٥-٢٠٠١، وفقاعة الرهن العقاري عالية المخاطر في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وفقاعتان للأسهم الصينية في عامي ٢٠٠٧ و٢٠١٥.

لا يتمثل نهج كوين وتيرنر في البحث عن بيانات تاريخية جديدة، ولكن لمراجعة الأدبيات العلمية وإثبات أن لمثلث الفقاعة في كل حلقة قوة تفسيرية هائلة. بشكل عام، وجدا في جميع حالات الفقاعات أن قابلية التسويق ترتفع أو تكون مرتفعة بالفعل، وأن المال والائتمان يتسعان بشكل كبير والمضاربة مشتعلة دائما. في كل حالة يؤكدان أن الشرارة الأولية كانت إما ابتكارا أو سياسة حكومية. يسلطان الضوء كذلك على أن الاحتيال والجهل في كثير من الأحيان وظيفة لإضافة المزيد من المال وجعل لحظة المضاربة الساخنة أكثر سخونة.

سلسلة الأحداث في عام ١٧٢٠ مثيرة للاهتمام بشكل خاص لأنها تشكل ثلاث فقاعات منفصلة. تمثل فقاعة

المسيسيبي في فرنسا، وفقاعة البحر الجنوبي في المملكة المتحدة، والطواحين الهولندية، وفقا لبعض المقاييس، أكبر فقاعة مالية عالمية في التاريخ. في كل حالة، «جميع الجوانب الثلاثة لمثلث الفقاعة «كانت» في مكانها». وفقًا لكوين وتورنر، كانت الدعاية والاحتيال وسياسة الحكومة هي الشرارة.

كانت العواقب الاقتصادية السلبية أكثر حدة في فرنسا منها في المملكة المتحدة وهولندا لسببين رئيسيين. تم الكشف عن نسبة أكبر بكثير من السكان الفرنسيين بسبب مخططات العملة الخاصة بجون لو، وكان النظام المصرفي الفرنسي أكثر انخراطا في التصنيع والمشاركة في فقاعة المسيسيبي. شهدت فرنسا ركودا عميقًا وأثقلها الدين العام والفوضى المالية، مما منع التنمية الاقتصادية لفرنسا، وربط الفقاعة «بشكل غير مباشر» بـ «الثورة الفرنسية والفشل النهائي لنابليون». في غضون ذلك، تجنبت فقاعة المملكة المتحدة وهولندا العواقب الاقتصادية والسياسية الوخيمة. في حالة المملكة المتحدة، ربما كانت فقاعة بحر الجنوب إيجابية صافية لأن الركود لم يدم طويلا، وانخفضت أعباء الديون بشكل كبير.

ولّدت فقاعة الدراجات في المملكة المتحدة في تسعينيات القرن التاسع عشر أيضا نتائج إيجابية صافية. على الرغم من أن عدد شركات الدراجات الجديدة لم يكن مستداما، وأن فقاعة مخزون الدراجات مدمرة، انتقلت العديد من الشركات غير المربحة والمفلسة بسرعة إلى أشكال أخرى من التصنيع بعد انفجار الفقاعة. أدى هذا إلى زيادة القدرة الصناعية لبريطانيا. بالإضافة إلى ذلك، قدمت الدراجات فوائد صحية للركاب وقللت من النفايات الضارة من الخيول، مما يجعل نشاط المشاة أكثر أمانا.

لذلك من المهم أن ندرك أن الفقاعات يمكن أن يكون لها عواقب إيجابية؛ ومع ذلك، «ليست كل الفقاعات حميدة أو مفيدة اجتماعيا». تميزت أزمة الرهن العقاري لعام ٢٠٠٨ بتدميرها الاقتصادي، وتدمير قيم المنازل. في أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، كان مثلث الفقاعة في حالة شحنة فائقة. كان وقود الأزمة هو تدفق الأموال إلى العقارات في أعقاب انهيار أسهم الإنترنت في عام ٢٠٠١. وكان الأكسجين هو الزيادة الكبيرة في نشاط سوق الأسهم منذ التسعينيات، بالإضافة إلى الزيادة في ثروة الطبقة المتوسطة والابتكار المالي الذي أعقب ذلك. جاء التوتر بسبب المضاربات العقارية والارتفاع السريع في أسعار المساكن، ووسائل الإعلام المالية التي شجعت الاستثمار العقاري والبرامج التلفزيونية التي شجعت على تقليب المنازل.

أكد كوين وتيرنر أن الشرارة لمثلث فقاعة الإسكان كانت «سياسية» ويمكن العثور عليها في سياسة الإسكان الحكومية، التي تهدف إلى إنشاء «مجتمع ملكية» وتقليل

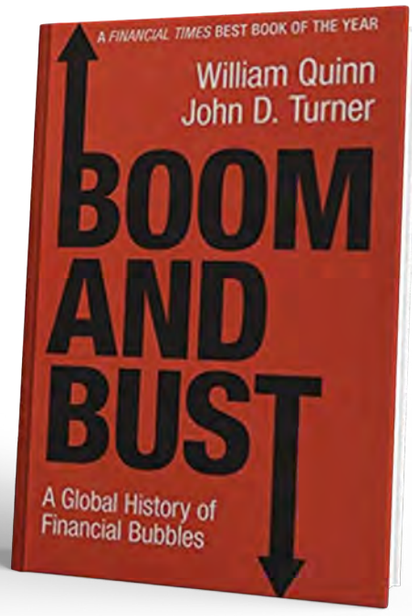

عدم المساواة. وهي تؤكد على «العلاقة التكافلية غير الصحية بين مطوري العقارات والبنوك والسياسيين». علاوة على ذلك، كانت البنوك المركزية «عاجزة» عن منع الازدهار، لكنها كانت قوية في عمليات التنظيف: «ومع ذلك، فإنها بذلك أنقذت البنوك المتهورة وأسواق الأصول المشوهة بسياستها النقدية غير العادية. الآثار طويلة المدى لعمليات التنظيف هذه قد تجعل الفقاعة التالية أكثر احتمالية - وأكثر خطورة».

بقدر ما هو رائع وممتع ومفيد مثل هذا الكتاب، فإن الانتقادات الموضوعية في محلها. أولا، يفوت كوين وتيرنر فرصة لتطبيق إطار مثلث الفقاعة الخاص بهما على فقاعة العقارات في الصين وهونج كونج، وعلى منتجات إدارة الثروات التي مولتها. تنكمش هذه الفقاعة حاليا، مما يشير إلى أن هذا هو موقع الأزمة التالية.

ثانيا، لا يؤمن كوين وتورنر كثيرا بالحكومات التي تمنع الفقاعات. وبالتالي، فإن أفضل ما يمكن أن نأمله هو أن تقوم البنوك المركزية بتنظيف «الفوضى من انهيار الفقاعة من خلال تخفيف آلام انفجارها». استنتجا بشكل معاكس للمناخ أن «الدرس الرئيسي للمستثمرين من كتابنا» هو مجرد فحص «كل موقف لمعرفة ما إذا كانت عناصر مثلث الفقاعة موجودة». «حذار أيها المستثمرون» عبارة عن جملة غير مرضية للغاية.

ثالثا، قلق كوين وتورنر صراحة وضمنيا في جميع أنحاء كتابهما بشأن العلاقة «غير الصحية» بين الدولة والممولين كمصدر أساسي يروج لمثلث الفقاعة. يجب إيلاء المزيد من الاهتمام لتحديد الشروط التي تشكل علاقة «صحية» والأشكال المؤسسية التي من شأنها أن تساعد على ترسيخ علاقة تكافلية صحية بين الدولة والممولين.

رابعا، يزعمان بشكل استفزازي أن أشد عواقب الفقاعات خطورة تعتمد على شرطين. الأول هو درجة النفوذ ومشاركة البنوك، مقابل مشاركة مؤسسات الاستثمار المالي في تلك الرافعة المالية. ثانيا، ما إذا كانت الشرارة الأولية ابتكارا أم سياسية. عندما تكون الشرارة الأولية سياسية، ويتم استغلال النظام المصرفي بشكل كبير، تكون العواقب وخيمة. هذه بالتأكيد فكرة مهمة. ومع ذلك، هناك أسباب وجيهة للاعتقاد بأن فقاعة مسيسيبي عام ١٧٢٠، وأزمة الرهن العقاري لعام ٢٠٠٨ نتجتا عن الابتكار المالي أكثر من السياسة الحكومية.

وعلى نحو متصل، كانت مبررات سياسة مجتمع الملكية لإدارة جورج دبليو بوش، هي عدم المساواة ونقص الرعاية الصحية، وعدم كفاية صناديق التقاعد. عزز الاحتياطي الفيدرالي طفرة العقارات بسبب مخاوفهم من انهيار سوق الأسهم على الإنترنت. لماذا لا نحدد القوى التي تولد عدم المساواة، وأزمة الإنترنت على أنها شرارة مثلث فقاعة الرهن العقاري؟ تحديد الشرارة النهائية أكثر إشكالية من وجود كوين وتيرنر.

حتى مع هذه الانتقادات البناءة، فإن كتاب كوين وتورنر يستحق أعلى توصية. إنه في متناول الشخص العادي وفي نفس الوقت بنّاء واستفزازي للخبير. إنه مكتوب بشكل جيد للغاية ومُحرر ببراعة. الأمر الأكثر إثارة للإعجاب هو القدرات التوضيحية والتنبؤية القوية التي سيوفرها إطاره التحليلي للمنظرين وصانعي السياسات والمستثمرين. كما يصف ويستخلص دروسا من عشرة هلوسات مالية، من فقاعة بحر الجنوب إلى «رأسمالية الكازينو ذات الخصائص الصينية». كما يشرح الفقاعات بما يسميه المؤلفان «مثلث الفقاعة». تتكون جوانبها الثلاثة من الأكسجين، وهو «قابلية تسويق» والأصول، والوقود، وهو «المال والائتمان» والحرارة، وهو «المضاربة». يتكرر هذا المزيج بشكل متكرر وكذلك الفقاعات. تماما مثل الحرائق، إذ تعتبر الهلوسات المالية والانهيارات مدمرة، ولكنها يمكن أن تكون مفيدة أيضا، من خلال إزالة الأخشاب الميتة.

· الكتاب: الطفرة والتمثال: تاريخ عالمي للفقاعات المالية

· المؤلف: ويليام كوين وجون تورنر

· سنة النشر: 2020

· دار النشر: جامعة كامبرج للنشر

· عدد الصفحات: 296 صفحة

* كاتبة عُمانية

بيئة البيانات الرقمية: إنترنت الأشياء والبيانات الضخمة والذكاء الاصطناعي

يحيى اليحياوي

محمد حركات *

ينطلق هذا الكتاب الهام للبحث في جيواستراتيجية وجيواقتصادية ثورة البيانات التي يمكن تشبيهها بنفط جديد بفعل ما أحدثته من تغييرات عميقة في منظومة الإنتاج وتنمية الثروة والحوكمة والمتمثلة أساسًا في ظهور تنظيمات جديدة في البنيات الاقتصادية والاجتماعية الكونية . غير أن هذا التشبيه لا يعكس إلا جزئيا خصوصية هذه الثورة مقارنة مع كل الثورات التي عرفتها البشرية. حيث إنه خلافا لحقول واحتياطيات ثروات النفط وإن توسعت تعرف التوقف والنفاذ فإن موارد البيانات لا تنضب لأنها غيرمحدودة زمكانيا ولا تنخفض مع الزمن، بل على العكس هي تتضاعف وتزداد قيمتها ومردوديتها بكثافة الاستعمال والتقاسم مع الآخر.

ملامح في طريق تطور ثورة البيانات

يعيش العالم اليوم ثورة بيانات بامتياز . يوضح الكاتب أنه على مدار التاريخ «حدثت أكبر التحولات عندما أصبح المورد الشحيح حتى الآن وفيرًا: التحول من مجتمع الصيد والقطف إلى مجتمع زراعي (المزيد من الغذاء)، واختراع المطبعة (المزيد من التعلم)، وظهور عمليات التصنيع الجديدة والثورة الصناعية (المزيد من المنتجات والسلع ذات الإنتاج الضخم) أو حتى شبكة الاتصالات العالمية، التي ولدت عالمنا المترابط (المزيد من إنتاج البيانات ونشرها وذيوعها)».

ومنذ العصر الحجري وما كان لاكتشاف النار من تحول عميق في حياة البشر إلى الخوارزمية، عرفت البشرية منذ الحدثين العديد من الثورات الكبرى . غير أنه منذ مطلع القرن الحادي والعشرين، أحدثت ثورة التكنولوجية الرقمية اضطرابًا كبيرا في حياتنا بشكل لم يسبق له مثيل، حيث أثرت على طرق عملنا وتفكيرنا وسلوكنا أو رؤيتنا للعالم تغيرت بفعل جائحة كوفيد-١٩ وتداعياتها الاقتصادية والاجتماعية والنفسية وعلاقتها بالثورة العارمة للإعلام والتواصل. يقدر صندوق النقد الدولي تبعات هذا الوباء العالمي وفاتورته التي قد تمتد لسنوات من الآثار الاقتصادية والاجتماعية في حوالي ١٢ تريليون دولار، وهي لا تتضمن قيمة الفرص الاقتصادية الضائعة في المجالات الإنتاجية والاستهلاكية التي خلفتها اجراءات التصدي لتفشي الوباء. لكن قطاع التكنولوجيا الرقمية لم يتأثر بتداعيات الجائحة بل على العكس من ذلك انتعش وتضاعفت أرقام معاملاته وأرباحه بفعل دينامية الالتجاء اليه في الأيام الصعبة . وكم من ضارة نافعة . كما يقول العرب.

والواقع،منذ مطلع القرن إلى اليوم مرت عشرون عاما، حيث أصبحت هذه الفترة الوجيزة من الزمن كافية لتفرض الثورة تكنولوجية هيمنتها على العالم (أفرادا وشركات ودول) من خلال الانتشار الواسع والكاسح للإنترنت منذ التسعينيات، وهي شبكة عالمية واسعة تعود بداياتها إلى الستينيات، لكنها انتشرت على نطاق واسع منذ نهاية التسعينيات باعتبارها «عالمًا جديدًا» خاليًا من الحدود الجغرافية والقانونية الرسمية حيث سمح واقع الحال على التركيز ونشر حجم كبير من المعلومات والبيانات التي تتحدى الخيال الآن: على سبيل المثال تم إرسال ٤٤,٧ مليار رسالة نصية قصيرة ورسائل وسائط متعددة إلى فرنسا في الربع الأول من عام ٢٠١٨؛ وما بين يناير وأغسطس ٢٠١٩، ورد أنه تم تبادل أكثر من ٤٥٥٨٤ مليار رسالة إلكترونية في جميع أنحاء العالم أو هناك ما يقرب من ٣ مليارات مستخدم للإنترنت على هذا الكوكب. وتعمل هذه البيئة الرقمية على عدة أنظمة للنقل وتوزيع الطاقة إلى التمويل الدولي، بما في ذلك الخدمات العامة والتجارة الإلكترونية وحتى العلاقات الاجتماعية.

وبناء عليه، فالحلم التحرري بالإنترنت كما كانت تنظمه وتحتكره الشركات الخاصة والذي ساد ردحا طويلا من الزمن حيال دول ظلت عاجزة لفترة طويلة في فهم الظاهرة وأبعادها الجيواستراتيجية والجيواقتصادية سرعان ما بدأ ذلك الحلم يتهاوى ويتلاشى عندما استعادت الدول صدارة المشهد الرقمي من خلال تركيزها الكبير على اختراق وتملك الهندسة المعمارية للشبكة الرقمية من المنبع إلى المصب باعتبارها، قضية سيادة وسلطة وثروة في القرن الحادي والعشرين، مثل ما تملكت أسلاك التلغراف في القرن التاسع عشر.

إشكالية ومنهج الكتاب

ومن هذا المنطلق يبدو أن تملك تطبيقات تقنيات الإعلام والتواصل لا ينبغي أن تختزل في بعد تقني ضيق لتصبح حكرا على دائرة الخبراء والمختصين في صيرورة إدارة البنيات التحتية العامة (الأسلاك البحرية الغواصة مثلا)المتعلقة بتخزين واستغلال البيانات وتدفقها بل هي تتجاوز ذلك بكثير لتصبح رهان سيادة للدولة والمقاولة وشتى المنظمات. لذلك تكمن إشكالية الكتاب موضوع المراجعة أهمية مجتمعية خاصة في طرح جملة من الاسئلة الجيواستراتيجية والجيواقتصادية والاجتماعية والتقنية والإنسانية الكبرى وفق مقاربة شمولية كالتالي :ما هي البيانات الرقمية ؟ ماهي وظائفها الإعلامية والسلعية ما هي إشكالية ضبطها ؟كيف يمكن مقاربة النماذج الاقتصادية للبيانات حسب العرض والطلب والسوق عبر اقتصاد المنصات والخوارزميات بصفتها صيغة جديدة للقوة اعتبارا أن البيانات الرقمية هي بمثابة مواد أولية استهلاكية للمنصات حيث يتم استغلالها بدرجة من الفعالية في الجمع والتنظيم والاستعمال والتخزين والاشتغال؟ أين تكمن رهانات البيانات الضخمة BIG DATA والذكاء الاصطناعي؟

ماهي أهم المظاهر الجيوسياسية والنماذج الدولية لمنظومة البيانات الرقمية كرهان استراتيجي واقتصادي بالنسبة للفاعلين الدوليين؟

ماهي معيقات حماية البيانات الشخصية والحياة الخصوصية وحدود السيادة الرقمية وتحدياتها في ضبط المنصات الرقمية

أهمية المؤلف وراهنيته والسياق العام الذي جاء فيه

يكتسي موضوع الدراسة حول بيئة البيانات الرقمية عدة أبعاد جيواستراتيجة وجيواقتصادية وتقنية واجتماعية وسوسيولوجية وإنسانية بامتياز فهو يتضمن كلاما ثقيلا ورصينا حول التنمية الشاملة وعلاقتها بالديمقراطية والسيادة. ولقد صدق وكيل وزارة الدفاع الأمريكي وليام لين william J. Lynn بشأن التهديدات والمخاطر التي تحدق بحوكمة الأمن السيبراني عندما قال « عندما يسألني أحدهم من الذي يمنعني من النوم ليلا: أجيب التهديد الإلكتروني «. وهو ما أكده الرئيس الأمريكي السابق باراك أوباما عندما قال : «ازدهار أمريكا يمر عبر ضمان الأمن السيبراني».

والواقع فإن الكتابة حول هذا الموضوع هو عمل شائك ومعقد فلذلك هو يتطلب إشراك عدة باحثين متعددي التخصصات والمعارف. ويأتي هذا الكتاب في سياق عالمي مضطرب يتميز بتداعيات جائحة كوفيد -١٩ وضعف أو غياب مؤسسات كونية فعالة ضمن الحوكمة العالمية للتصدي للجرائم السيبرانية وتزايد هيمنة الكبار كافام GAFAM (غوغل، أبل، فيس بوك، أمازون وميكروسوفت) في البنية التحتية المؤثرة على النظام المالي والاقتصادي والاجتماعي. كما ازداد تعقد الهجوم المعلوماتي وتزايدت قرصنة البيانات مقابل المطالبة بالفدية حيث امتدت إلى المستشفيات والمكتبات ومكاتب المحامين والمرافق الأمنية والتطهير. واضطرت FBI نفسها لأداء الفدية لتفادي عدة أسابيع لاسترجاع البيانات الرقمية والبيانات التحتية الحرجة .

لذلك يكشف عنف الثورة اليوم في خضم عنف الوباء عن ميلاد عالم فوضوي جديد وغير مستقر لا يمكن التنبؤ به ويثير الكثير من عوامل القلق والتوتر،لاسيما في المجتمعات الهشة، والتي تتطلب أكثر من أي وقت مضى من السلطات أن تعرف كيف تحكم الأزمات

والثورات التكنولوجية الكبرى، لأن الحوكمة الاستراتيجية لمنظومة الاقتصاد الرقمي هي كفيلة بالسيطرة على كل مظاهر المخاطر المتعلقة بعلاقة المجتمع بمنظومة الاقتصاد الرقمي.

أما على مستوى المردودية الاقتصادية ورقم الأعمال فإنه يصعب تقدير القيمة الإجمالية لوفرة البيانات في شتى أشكالها واستعمالاتها . ففي عام ٢٠١٥ وثورة البيانات مازالت آنذاك في بدايتها فإن اللجنة الأوروبية قدرت الحجم التراكمي للأسواق المباشرة للبيانات العامة المفتوحة خلال الفترة ٢٠١٦-٢٠٢٠ في ٣٢٥ مليار يورو بأوروبا. أما مؤسسة ماكينزي فقد قدرت أن البيانات الضخمة يمكن أن تدر ٣٠٠٠ مليار دولار سنويا في مجمل القطاعات الاقتصادية الأساسية .

مضامين الكتاب وخلاصاته الجوهرية وإسهاماته وقيمته العلمية المضافة

جاء هذا الكتاب الهام لتناول إشكالية بيئة البيانات الرقمية في شتى جوانبها وتحدياتها وقيودها عبر عرض أربعة أبواب دراسة بيئة البيانات في صيرورة الإبداع والابتكار والتجديد وكيف يمكن مقاربة النماذج الاقتصادية للبيانات حسب العرض والطلب أو السوق عبر اقتصاد المنصات والخوارزميات بصفتها صيغة جديدة للقوة اعتبارا أن المعطيات الرقمية هي بمثابة مواد أولية استهلاكية للمنصات حيث يتم استغلالها بدرجة عالية من الفعالية عند كبار المنصات الدولية في الجمع والتنظيم والاستعمال والتخزين والاشتغال ؟

وفي الباب الأول ضمن العناصر المحددة لاقتصاد البيانات الرقمية حرص الكاتب على تخفيف أحمال الكتابة عن عاتقه لكثرة ما كتب ويكتب في الموضوع متبنيا منهجا تركيبيا - مقارنا في معالجة براديغمات اقتصاد وحوكمة البيانات الرقمية متوجسا خيفة مغبة الوضوح في المفاهيم اعتبارا لخصوصية الموضوع التقنية والابستمولوجية والفكرية والإستراتيجية والعلمية والبيداغوجية.

وفي الباب الثاني عالج المؤلف رهانات البيانات الضخمة BIG DATA وإنترنت الأشياء والذكاء الاصطناعي حيث أبرز مضمون ومستقبل البيانات الضخمة والخوارزميات والإنترنت، فضلا عن تحديد مفاهيم الذكاء الصناعي والخوارزميات كنمط جديد في قوة المنصات التكنولوجية وسلسلة القيم بها وكذا الاتجاهات الكبرى لهذا الذكاء وعلاقته بالتحولات القطاعية وكيف أن الذكاء الصناعي يعد صناعة التقائية .

وضمن الباب الثالث حدد الكاتب الأبعاد الجيو-سياسية لمنظومة وبيئة البيانات الرقمية كرهان جيو-استراتيجي بالنسبة للفاعلين الدوليين من خلال عرض مجموعة من النماذج الدولية الكبرى الولايات المتحدة (المهيمنة دوليا) الصين، روسيا والاتحاد الأوروبي.

وفي الباب الرابع أبرز المؤلف بعض مظاهر الجمع المكثف للبيانات والمراقبة المفرطة للمستعملين ومعيقات حماية البيانات الشخصية والحياة الخصوصية،متسائلا عن مدى محدودية حماية الحياة الخاصة للأفراد .

الواقع،الكتاب كتب بلغة موليار Molière بقلم سيال وأسلوب رشيق وأنيق ضمن أربعة دفاتر متينة المرافعة والحجج العلمية الدامغة حول تحديات ورهانات بيئة البيانات الرقمية والإنترنت، البيانات الضخمة والذكاء الاصطناعي.

ألم يقر الكاتب في خاتمة الكتاب والأمور بخواتمها «لضمان الحقوق والحريات في عصر إنترنت الأشياء والبيانات الضخمة والذكاء الاصطناعي، ينبغي البدء في التصدي لجذور الإشكالية:

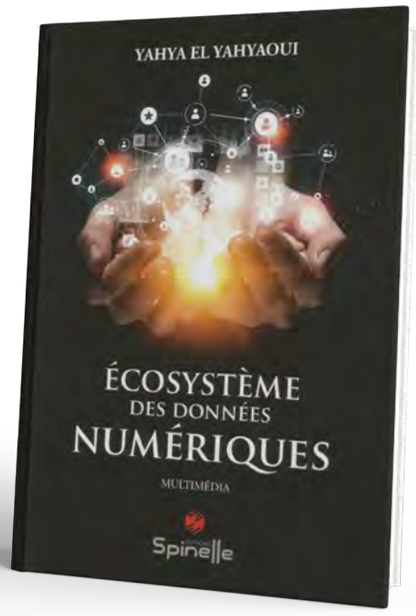

تحتاج الخوارزميات كما صممها ويستخدمها عمالقة الشبكة العنكبوتية إلى الديمقراطية لصالح المزيد من التوازن والشفافية والمسؤولية». وإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» «العنكبوت: ٤١.

المؤلف مؤثر ومعبر عن معارف واسعة للكاتب وعن آراء ناضجة في كوجيطو اقتصاد المعرفة لينضاف إلى أعمال علمية أخرى متميزة كان قد أنجزها في مجال تخصصه. والهدف يكمن في سعيه الحثيث لتنبيه الغافلين حول أسباب القوة ومكامن الضعف عند الكبار وعزتهم بالتكنولوجيا والصناعة والبحث العلمي وهي عوامل مجتمعة كثيرة معقدة كلها صيرتهم إلى ما صاروا إليه...

تتمثل الخلاصات الجوهرية والقيمة المضافة للكتاب في الآتي:

راهنية وأهمية الكتابة حول الاقتصاد الرقمي (تقنيات الإعلام والتواصل) بصفته أصبح صالحا كونيا عاما لاسيما في خضم الجائحة بجانب الصحة والتعليم والغذاء والبيئة والماء والحوكمة والثقافة والقيم الإنسانيات والصلابة اعتبارا لدورها (تقنيات الإعلام والتواصل) في الحد من توقف العمليات الإنتاجية والخدماتية من شغل عن بعد، وتعليم وطلب مشتريات التحول الرقمي للخدمات المالية، فضلا عن ضمان الترفيه والتثقيف والفعالية في الحفاظ على العلاقات العائلية والاجتماعية والجوار بفضل اللجوء إلى الهاتف والرسائل وباقي وسائل التواصل الاجتماعي.

القدرة العلمية والمنهجية على تقديم مختلف المفاهيم الابستمولوجية والتعاريف العملية حول مكونات وعناصر البيانات الرقمية باعتبارها دعامة الثورة الصناعية الثالثة وما نتج عنها من تغيير عميق في صيرورة الإبداع والابتكار والتجديد.

تبني الكاتب لمنهج تحليلي وتركيبي في التعريف بدينامية منظومة الاقتصاد الرقمي ومظاهر حكامته المؤسساتية والاستراتيجية وتفسير مدى تعقد دراسة المنظومة الرقمية/ الصدمة أو الكسر الرقمي وعلاقتها بدينامية تدفق السلع والخدمات في أيام الجائحة العصيبة (ربط العلاقات بين الأفراد تيسير التعليم عن بعد،) بصفتها قوة رقمية صلبة ذكية وناعمة تتوخى تغيير العالم (رقمنة العمل، التعليم، التعلم، التجارة) وحكمه من خلال تسريع الانتقال البيئي) لكن هل تسمح بالانتقال الديمقراطي الكوني / للبشرية / هي تراقب كل شيء ولا تسمح بمراقبتها .

مناداة الكتاب بضرورة امتلاك وتنمية تطبيقات تقنيات الإعلام والتواصل التي أصبحت تكتسي فضلا عن بعدها التقني العملي الكوني والاستراتيجي التنموي رهانا سيادة في ولوج السلع والخدمات الكونية المشتركة (إنتاج المعلومات، التخزين، الاستغلال وتنمية البنيات التحتية للبيانات).

الوقوف على التجارب والنماذج المقارنة حول بيئة البيانات ودراسة أوجه الشبه والاختلاف عبر الوقوف على حالات متعددة وكذا القيود والعراقيل التي تحول دون تحقيق الأهداف في وقت تعرف فيه منظومة الإنتاج العالمية عدة تحولات عميقة ذات أبعاد ثقافية سيكولوجية ترتبط بتقوية الصلابة لرأب التصدعات فضلا عن الرهانات البيئية والبحث عن النموذج البديل للمنظومة اللبيرالية المتوحشة .

ملاءمة العمل مع النقاش الكوني الحالي حول الموضوع بشأن بيئة البيانات وعلاقتها أساسا بالأمن السيبراني والديمقراطية والذي ينقسم اليوم إلى شقين: السعي إلى منع المخاطر السيبرانية ثم مقابل ذلك أيضًا زيادة الوعي بالفرص التي تتيحها التكنولوجيا الرقمية في المجتمع . وهنا تطرح مدى المسؤولية المجتمعية للدولة في حماية أمنها السيبراني وسيادتها الرقمية.

الإصلاح العالمي للجبايات الذي نتج عن اجتماع مجموعة السبع الصناعية الكبرى بكاربيس باي Carbis Bay في كورنواي Coron way الواقعة في غرب بريطانيا في فترة ١١- ١٣ حزيران/يونيو ٢٠٢١ والقاضي بتضريب أرباح شركات الكبار كافام في ١٥٪ .

التعريف بالكاتب

الدكتور يحيى اليحياوي هو كاتب مغربي،حاصل على الدكتوراه في الاقتصاد والحوكمة في موضوع «حوكمة الشبكات الرقمية» من جامعة محمد الخامس بالرباط بالمغرب وخريج المدرسة الوطنية العليا للبريد والمواصلات بباريس ومؤلف للعديد من البحوث والأعمال العلمية المتميزة في مجال اقتصاد المعرفة والرقمنة . كما صدرت له مؤخرا على التوالي ثلاثة كتب جديدة عن دار لارماتان بباريس وهي : «اقتصاد المنصات الرقمية: اقتناص القيمة وقوة السوق والمشاعات التعاونية» و«المشاعات الرقمية: الملكية والاقتصاد التشاركي والحوكمة متعددة المراكز» و«وسائل الإعلام، السياسة والأخلاق». وهو حاصل على عدة جوائز علمية تقديرية.

· الكتاب: بيئة البيانات الرقمية: إنترنت الأشياء، والبيانات الضخمة والذكاء الاصطناعي

· تأليف : د. يحيى اليحياوي

· الناشر: مطابع سبينال - فرنسا،باللغة الفرنسية

· سنة النشر: 2020

· عدد الصفحات : 231 صفحة

*** باحث مغربي، متخصص في حوكمة أفريقا والشرق الأوسط**

إصدارات عالمية جديدة

اللغة الفرنسية (سعيد بوكرامي)

الكتاب: اقتصاديات ما بعد الكينزية

المؤلف: مارك لافوي - فيرجيني مونفويزين - جان فرانسوا بونسو

الناشر: منشورات دار لاديكوفيرت باريس. فرنسا

تاريخ النشر: 2021

عدد الصفحات: 128 صفحة

توفر اقتصاديات ما بعد الكينزية شبكة تحليل اقتصادي بديلة. إنها ليست مجرد امتداد لعمل جون ماينار كينز، فهو يساهم في التجديد الحالي للفكر والسياسات الاقتصادية.

يهدف هذا الكتاب إلى تقديم الأسس والتطورات والنتائج لما بعد الكينزية بطريقة واضحة وتركيبية. بعد تقديم لابتداع ما بعد الكينزية، كما يؤكد على أهمية الآليات النقدية، وارتباطاتها بديناميات الاقتصاد الكلي، ثم يتعامل مع التحليل قصير الأمد (الاقتصاد الجزئي، والطلب الفعال وسوق العمل) والتحليل طويل الأمد (النمو). الكتاب مخصص للطلاب الذين يرغبون في التعرف على اقتصاديات ما بعد الكينزية ونماذجها الحديثة، مثل النظرية النقدية الحديثة. علاوة على ذلك، سيكون الكتاب مفيدا لأي شخص يبحث عن عناصر التحليل لفهم التحديات الرئيسية في عصرنا بشكل أفضل.

الكتاب: علم اجتماع السينما

المؤلف: فيليب ماري وأوريلي بينتو

الناشر: منشورات دار لاديكوفيرت باريس. فرنسا

تاريخ النشر: 2021

عدد الصفحات: 128 صفحة

كيف هيكلت السينما الفرنسية؟ كيف نحلل نظرة فئات المتفرجين المختلفة؟ كيف تصنع الأفلام بشكل جماعي؟ كيف تتحدث السينما عن العالم الاجتماعي؟

يتساءل هذا الكتاب حول استقطاب السينما الفرنسية بين السينما التجارية وسينما المؤلف. ثم يحلل استهلاك الأفلام من خلال دراسة الحضور في السينما وممارسات المشاهدة وتفضيلات الجمهور، دون إغفال دور الوسطاء والموزعين ودور السينما. كما يوضح الأساليب الملموسة في صناعة الأفلام، وتشكيل الفِرَق، وتـوازن القوى (من حيث المكانة، والجنس، وغيرهما) التي تنتمي إلى المهن المختلفة (الفنيون، والمخرجون، والمنتجون، والممثلون، والمذيعون، والإداريون، وغيرهم) وأخيرًا، يهتم الكتاب بالعلاقة بين السينما وعلم الاجتماع: إلى أي مدى يمكن أن نعتبر السينما وسيلة لمعرفة العالم الاجتماعي؟

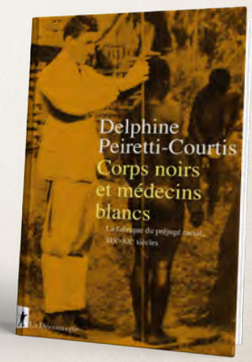

الكتاب: أجساد سوداء وأطباء بيض

صناعة الأحكام العنصرية، في القرنين التاسع عشر والعشرين

المؤلفة: دلفين بيرتي كورتيس

الناشر: منشورات دار لاديكوفيرت. باريس. فرنسا

تاريخ النشر: 2021

عدد الصفحات: 354 صفحة

لمحاربة الصور النمطية العنصرية التي لا تزال قائمة ضد النساء والرجال السود في المجتمع الفرنسي، يجب العودة إلى أصولها. منذ نهاية القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن العشرين، رفعت الأدبيات الطبية الأحكام العنصرية حول الأجسام السوداء إلى مرتبة الحقيقة العلمية وتتمثل في الدونية الفكرية، والمقاومة الجسدية، وهيمنة العواطف، وحتى فرط النشاط الجسدي.

يشكل عمل دلفين بيريتي كورتيس أول تحقيق معمق في الطريقة التي تمت بها معالجة هذا السؤال في الكتابات المتخصصة في تلك الفترة ضمن المعاجم والأطروحات الطبية، والدراسات حول الأجناس البشرية، وتقارير البعثات الاستعمارية. ومن ثم فهي توثق لظهور النظريات العرقية المطبقة على السكان الأفارقة في العلوم الطبية الفرنسية، وتطورها قبل انحدارها. يلقي الكتاب الضوء على صيرورة عنصرية الجسد والجنس والنشاط الجنسي لشعوب أفريقيا. في مجتمع يحل فيه العلم تدريجياً كمصدر للمعرفة، يتم تعزيز المخطط العنصري الذي طوره العلماء من خلال القوة السياسية لخدمة المشروع الاستعماري وبذلك يصبح الجسد أداة للاستعمار.

من خلال تسليط الضوء على الآليات التي تتشكل من خلالها القوالب النمطية بالإضافة إلى التنافس التدريجي عليها، يتيح لنا هذا العمل الفريد من نوعه فهم كيف أصبحت الأحكام المسبقة «معرفة» علمية، مثبتة بشكل دائم في أذهان الناس، حتى بعد إلغائها التام.